المدرسة المصرية فى الفن والحياة

بناء الإنسان والطفل

حامد سعيد



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٠

اخراج فني

عمر حماد

المدرسة المصرية فى الفن والحياة

بناء الإنسان والطفل

حامد سعيد

أحاديث ألقيت باللغة الدارجة
أعادت صياغتها وأعدتها للنشر
إحسان خليل

أساس الإنسان هو الإيمان ،
وأساس الإيمان هو التواصل مع سر الوجود .
وحتى لا يتزعزع هذا الأساس
لابد من تدعيمه فى الأيام الأولى
فى صميم التجربة الذاتية للفرد .

١ — وحدة الحياة شهادة التوحيد

الموضوع الذى اقترحه ليستمر طوال عام ١٩٧٩ هو « بناء الإنسان والطفل » . وكنا قد بدأنا فى أتيليه القاهرة قبل اليوم بحوالى ثلاثة أشهر ، ثلاثة أحاديث حول « بناء الإنسان والدولة » ونعد الآن لنشرها ليتسنى للفكر فيها أن يعرض على المفكرين المهتمين ببناء الإنسان ودور الفن والدولة فيه .

أما عن حديثنا اليوم وبمناسبة عام الطفل فإنى أرى أن يكون الموضوع عن عام الطفل وأصدقاء الفن والحياة : أى أن لنا كأصدقاء فن وحياة ـ وجهة نظر فيما يختص بالطفل . ونحن لاندعى أننا أول من نادى بالاهتمام بالطفل ، لأن البشرية تهتم بالطفل من اليوم الأول ، فهذا أمر مغروس فى النفوس . ولكننا ـ فعلا ـ من عام ١٩٦٩ ـ عن طريق المحاضرة ، وعن طريق الكتابة المنشورة ، كنا أسبق من جهاز الدولة فى تبنى فكرة ثقافة الطفل

ومع ذلك فمازالت هناك ـ حتى اليوم ـ نقطة أساسية تائهة فى ثقافة الطفل . .

- ثقافة الإنسان تعنى تنمية قدراته سواء كانت جسدية أو غريزية أو فكرية أو روحية ، تنمية متناسقة ومتكاملة ، ولاتقف على وضع تجمد عليه ، إنما تستمر عن طريق المراحل الثلاث التى نتصورها للنمو : وهى توسيع الوعى . . ولا حدود لتوسيع الوعى . وبحث . . وهو فى الحقيقة عملية بحث عن الذات الجديدة النامية لهذا الانسان : أى أنى حين أعمل وأنا شخصيا لا أحب أن أعمل إلا نتيجة وعى اتسع أى خبرة انفتحت عليها ـ حين أعمل يتسع أمام وعيي أفق الحياة الأمر الذى يحتاج إلى بحث . وهذا البحث لا يتأكد إلا إذا أثمر فى عملية خلاقة أى فى العمل . . أى أن أعمل شيئا جديدا وهنا يولد العمل الفنى الذى يشف عن ذاتى الجديدة النامية **ونحن نعتبر أن العمل الفنى هو العمل الإنسانى السوى . . إذ لا فرق عندنا بين الفن والحياة .**

- وحين يسألنا سائل عن أصدقاء الفن والحياة نقول إنهم مجموعة من الشخصيات من مختلف الاختصاصات ، لديهم رغبة أن يجعلوا من الفن حياة . . ومن الحياة فنا . فإن كل عمل إذا عُمل إنسانيا وبالأسلوب السوى فإنه يتحول إلى القيم الفنية الجمالية التى نعشقها .

- بماذا أطالب فى ثقافة الطفل ؟

أطالب بتنمية كيان الإنسان ، لأن الطفل هو بذرة الإنسان . وتنمية البذرة هو أن تجعلها تأخذ أقصى درجات النمو الميسر لها .

فما هى إذن النقطة الناقصة سواء على مستوى التربية والتعليم فى المدارس ، أو على مستوى الإعلام ، أو على مستوى أجهزة وزارة الثقافة ؟ هى نقطة هامة . . ولكن من السهل جدا أن يخطئها الإنسان .

هى أن أعطى الطفل رؤية مضيئة فى الحياة ،
بمثابة نور يكشف أمامه آفاقا أوسع فأوسع ،
ولاينطفىء حتى لا يضل .

● هذه هى النقطة التى نفشل فى أن نحققها فى المدرسة من البداية وحتى الجامعة ،، وتفشل أجهزة الإعلام فى أن تحققها للمواطن . وأجهزة الثقافة فى أن تركز عليها باعتبارها بيت القصيد : هل استنار الإنسان ؟
إنّ الذات البشرية ـ كل ذات بشرية ـ ممكن أن تعيش وتموت فى الجاهلية . . والجاهلية هى مرحلة عدم الاستنارة بمعنى عدم وجود نور يهتدى به الإنسان فى حياته « ومن لم يجعل الله له نورا فليس له من نور » .
ما حكمة هذه الآية القرآنية ؟ فى الحقيقة لا يمكن إعطاء النور ولكن يمكن أن أمهد وأن أجتهد ولكن النور فى النهاية يأتى كعطاء من الأعماق .

● فإذا كنا فى جلستنا هذه نحاول أن نفكر سويا فى معنى النور الممكن

أن نمهد الطريق إليه للطفل . . لهذا الإنسان البذرة الناشىء ، فإننا نكون بذلك قد عملنا شيئا كبيرا وهاما .

● أقول إن الرؤية الجديدة كانت دائما هى حياة العصور الكبيرة المختلفة . ولو أننا تتبعنا بعض العصور الكبيرة ، لأدركنا معنى رؤية جديدة : فمثلا ، عصر النهضة الأوربية ؛ عصر النهضة الأوربية عبارة عن رؤية جديدة تحمس لها عدد من الناس ، فتجددت الحياة داخلهم وخارجهم وأنجزوا من المنجزات ما أنجزه عصر النهضة .

والفترةالمسيحية مثلا ؛

إن المسيح أعطى للناس نورا فى فترة كان نور القلب البشرى قد خفت منها . أضاء لهم رؤية ، فوجُدت الحضارة المسيحية .

وماذا عن الاسلام ؟

إن محمدا جاء بالإسلام ، والإسلام عبارة عن رؤية جديدة للكون وللإنسان ، غيرت من شأن العرب الذين كانوا فى الجزيرة العربية ، ومن بعدهم كل شعوب العالم القديم . .

● فحين نستغرب كيف تمت الأعمال العظيمة لعصر النهضة . . أو للحضارة المسيحية . . أو للإسلام ، ونبدأ فى التفكير ـ الذى يعتبر أن هذه الأعمال تمت هكذا وانتهى الأمر ـ يستغلق علينا الموضوع ، فلا نعرف كيف يمكن أن يقام مثلها مرة أخرى . أما النظرة العلمية التى تبحث عن الأسباب فهى تدرس طبائع الأشياء دراسة صحيحة الأمر الذى نهمله حتى الآن فى مثل هذا الموضوع .

● ماهى طبيعة الرؤية ؟
وكيف يمكننا أن ننجح فى تزويد الناشىء برؤية جديدة ؟
نحن ننشىء مدارس كثيرة . .
ونقيم مسارح . .
ونطبع كتب . . وننشىء مؤسسات لطباعة الكتب . .
ولكنا لا نفكر فى كيف نبنى رؤية جديدة للطفل اليوم ، فى مصر ، وفى العالم ، حتى لايضل حين يصل لمرحلة الشباب ، كما هو حادث اليوم . .
فإن الشباب ـ فى أنحاء العالم ـ اليوم تائه ؛ لا يرى نورا ، ولا يرى معنى للوجود يتحمس له . والسبب فى ذلك أن تنشئته الأولى تجاهلت هذه النقطة .
صحيح أنه قامت مجهودات عظيمة وكبيرة فى مجال الاهتمام بالتربية ومعاهد التدريس ومعاهد البحوث . . ولكنها كانت دائما تنسى نقطة الرؤية :

أى أن نوحى للطفل بنور يرى به الحياة
فى صورة لا تجعله ييئس ، إنما تعتبر
بمثابة سعادة نفسية له ، ومصدر
يُسعد به الآخرين
هذه هى الفكرة .

● إن فنانى عصر النهضة رأوا ـ فى وقت كان فيه العالم والحياة من حول الإنسان مكتويا بالخطايا والخطيئة ـ أن الحياة حلوة ، وأن حياة

الإنسان ممكن أن تكون سعيدة . . رأوا هذا من أنفسهم أولا ، ثم وجدوا مراجعهم بعد ذلك .

● وهذه نقطة هامة فى مثل هذه المواضيع ؛ لأننا نخطىء فى بعض الأحيان ونبدأ بالمراجع ، بينما المفروض أن يبدأ الإنسان بالذات ، بالرؤية الداخلية ، ثم يبحث بعد ذلك عن المراجع فى الخارج . وهذا عكس الفكر الذى نعلم أولادنا عليه فى العادة .

● ماذا يعنى هذا ؟
يعنى أن النفس البشرية بطبيعتها تحن إلى النور .
والنور يأتيها من الداخل .
وبعد ذلك تبدأ فى البحث عن الأسانيد والمراجع المختلفة التى تدعم الرؤية التى رأتها ـ أول مارأتها ـ فى نفسها .

● وعصر النهضة لم يكن نقلا للإغريق إطلاقاً ، إنما هو دعّم نفسه فقط باجتهادات وبحوث الاغريق لكن عصر النهضة شىء والإغريق شىء آخر ومع ذلك فهناك صلة بينهما هى صلة الأرومة : فجذور حضارة الإنسان الغربى بعامة موجودة فى الحضارة الإغريقية . فحين بحثوا عن مراجعهم فى الإغريق فإنهم ذهبوا لأصولهم . ولكنهم هم أنفسهم أى ما عمله « رافائيل » أو « مايكل أنجلو » أو « ليوناردو » أو ما عملة « تتيان » و « تنترتوه » شىء مختلف تماما عن الإغريقى فهم صدقوا رؤيتهم القلبية أولا . . أنا لا أريد أن استطرد عن عصر النهضة

بالذات لأنه ليس الموضوع ولكن أمثل به لمن يسأل عن قصدى بالرؤية . . ولذلك أقول : إنه فى آخر القرون الوسطى أى حين بدأ نور الحضارة المسيحية فى الانطفاء بدأت تظهر فى قلب الإنسان الأوروبى رؤية جديدة للحياة . هذه الرؤية الجديدة كانت هى القوة المحركة والنور الهادى الذى دفع الباحثين فى أبحاثهم فاتسع وعيهم .

لقد كان العالم حولهم طول الوقت . . ولكنهم لم يروه .

وكان جسم الإنسان موجودا طول الوقت . . ولكنهم لم يروه .

وبهجة التاريخ الإغريقى كانت موجودة طول الوقت . . ولكنهم لم يروها .

وحين تجدد النور فى الداخل بدأت
تظهر كل هذه الأشياء أمامهم
فبدأوا يبحثون عن الذات الجديدة
ذات الإنسان الأوروبى فى عصر النهضة
مقارنة بإنسان القرون الوسطى .
فوجدت رؤية جديدة .

إنهم لم يجتمعوا ليقرروا عمل نهضة وبدأوا يعلمون الناس . . أبدا إنما جاءت الرؤية أولا لمعنى الحياة فى الداخل وفى الخارج . . ثم حصل البحث الذى تبلور فى النهاية فى منجزات النهضة من عمارة وفنون مختلفة ومن أسلوب فى الحياة وبعد ذلك سارت العدوى من

إيطاليا لإسبانيا لفرنسا لانجلترا وألمانيا وأصبح لأوروبا السيادة بعد ما كانت متخلفة .

- هذا هو ما نريد للمصلحين سواء كانوا تربويين أو مثقفين ـ أن يدركوه حين يبدأوا فى عمل المناهج والخطط للطفل سواء للمدارس أو لعام الطفل

ومن حق كل عام أن يكون عام طفل لأن الطفل هو الأساس .

عليهم أن يدركوا أن النقطة الأساسية
فى التثقيف والتعليم والتربية هى
أن يعطوا الطفل هداية لرؤية المستقبل ..
أن يشعلوا النور فى قلبه ليرى العالم بنور جديد .

- هنا تأتينا نقطة هامة هى :

أنه لا يمكن لعصر من العصور أن يعيش على نور قديم فقط . أن قوم النهضة لم يعيشوا على نور الإغريق إنهم استضاءوا بهم كمراجع تدعم رؤيتهم .

ولم يكن الإغريق وحدهم هم المحرك لهم بل إن المسلمين أيضا كان لهم دور كبير فى بعث النهضة فقد استمر المتعلمون والمثقفون فى أوروبا حوالى ٥٠٠ عام يتعلمون العربية لكى يتعلموا ويتثقفوا .

- أقول هذا الكلام وأنا أعد نفسى لكتابة شىء عن الفنون الإسلامية وأصالتها . إن لى رؤيتى وبدأت أرجع للمراجع . وممن كتبوا كتابة

جيدة « جوستاف لوبون » وهو فرنسى وقد صدر كتابه « حضارة العرب » عام ١٨٨٤ أى منذ ما يقرب من مائة عام وقد ترجم الكتاب « عادل زعيتر » .

الكتاب ضخم فيه أكثر من ٣٣٠ صورة جميلة من منجزات الحضارة الإسلامية من الصين حتى فرنسا . وقد صور « جوستاف » الصور بنفسه إلا قليلا منها . وقد قام المؤلف برحلة فى البلاد العربية وحين نطالع مجموعة المراجع المسجلة فى آخر الكتاب سواء كانت مراجع عربية مترجمة إلى اللغات الأوروبية أو مراجع أوروبية لدارسى الحضارة العربية ، نخجل ، لأننا نرى إلى أى مدى يحاول هؤلاء أن يوسعوا أفقهم ويبحثوا ليخرج العمل الخلاق فى مثل هذا الكتاب .

وقد حاول المؤلف فى كتابه أن يكفر عن تعصب الإنسان الغربى ضد الشرق بعامة والإسلام بخاصة . وهو لا يدافع عن العرب مجرد دفاع حماسى إنما هو يتكلم عن سبب رفعة العرب وسبب انحطاطهم وكان مما قاله ، هذا الكلام الذى قلته الآن وهو أن الغرب استمر لمدة خمسة قرون يعتمد على المراجع العربية .

- ما أريد قوله هو أن رواد النهضة لم ينقلوا الحضارة الإغريقية ولانقلوا الحضارة الإسلامية إنما حين اتسع وعيهم نتيجة رؤيتهم الجديدة فتح الله عليهم بأن فتح وعيهم المغلق فرأوا الحضارة العربية وحضارة الإغريق وكانت نتيجة هذه الرؤية المتفتحة أن تدعم الأمل الذى نبع من أنفسهم :

ففى داخل النفس البشرية ديناميكية عجيبة
وحركة داخلية لم نعرف كنهها حتى اليوم تماما :
إذ يوجد فى أعماق النفس بصيص من نور يظهر
بين حين وآخر ولابد أن نحترس حتى لا نطفىء
هذا البصيص داخل الطفل الناشىء الذى نرعاه .

هذا البصيص من النور كالعلم اللدنى عطاء داخلى . وهو لا يأتى للفرد وحده فقط بل للمجتمع أيضا ـ كالذى جاء لعصر النهضة ـ عن طريق النابهين منه متفتحى النفس والقادرين ـ بوعى غير مقفل ـ أن يستمعوا لصوت ضميرهم العميق ويروا قبل الآخرين .

● ففى حالة محمد وحضارة العرب ، إذا أردنا أن نفهم كيف أن قوما كالعرب قاطنى الجزيرة العربية أمكنهم أن يخرجوا من هذه الجزيرة وينجحوا فى الوصول إلى إقامة دولة إسلامية من الصين حتى الأندلس . . نجد أنهم لم يكونوا أقوى ماديا ولا أغنى ، إنما كانت لديهم رؤية ؛ أى كان لديهم شىء هم مستعدون أن يضحوا بحياتهم من أجله . والتضحية هنا ليست بمعنى أن أذهب فى التو لكى تقطع رقبتى ، بل تعنى أن أهب حياتى كلها لتنصيع هذه الرؤية ، وهو ماأعطاهم القدرة ليس فقط لينتشروا هذا الانتشار بل ليسودوا هذه السيادة ، ويضيئوا للعالم كله معنى الحضارة ، فى وقت خفت فيه مشعل الحضارة فى بلاد العجم وبلاد الروم والحضارات الأخرى .

● هذا يعنى أننا فى كلية التربية مثلا لابد أن نعطى المدرسين البراعم

شحنة بالاهتمام بالرؤية الجديدة بأن يعرفوا أن الدرس الأساسى الذى سيدرسونه ليس هو أى درس فى المنهج ، إنما هو الرؤية من خلف كل درس سيدرسونه . . خلف كل كلمة سينطقون بها . . أى هل عندهم حلم فى داخلهم يريدون له أن يتحقق ـ وحلم ليس بمعنى أمانى كاذبة ، إنما حلم بمعنى أنى أسمح لأعماق نفسى أن ينبثق منها الإيمان الجديد . . الصورة الجديدة لذاتى الجديدة التى أريد أن أعيشها لتصبح نورا للآخرين .

كيف ؟

بعطاء من الأعماق .

لا تعمل إصطناعا .

وليس معنى ذلك ألا طريق لها ،، ليس معنى ذلك أن نظل سلبيين . . وفى نفس الوقت لا نكون سذج ونظن أن فى أيدينا مفاتيح كل شىء . الطريق يأتى من أن الطبيعة البشرية أمام ظروف العصر . . أمام مآسى العصر تتلمس النور .

طبعا هناك ناس من السذاجة بحيث يظنون أننا نعيش عصراً متقدما عظيما قويا . . ونحن نعيش هذا العصر بالفعل ولكنه فى نفس الوقت عصر مأزوم مكروب بائس ويكاد يكون متشائما . .

هذا صحيح وذاك صحيح .

ولكن الإنسان الشاعر بنفسه لايفتعل بل يبدأ من داخله . . من أعماق نفسه يحن إلى معنى جديد كالمعنى الذى حن إليه رواد النهضة بعد

أن انطفأ نور المسيحية الأولى بعد العصور الوسطى .

- إن مشكلنا الأساسى أن الحضارة الاسلامية التى كنا نعيش فى ضوئها كاد أن ينطفىء منها هذا الضوء فى وعينا ، ولقصور عندنا ، ولأننا أصبحنا نعيش فى ضوء الرؤية المتأزمة الغربية التى انبهرنا بها سطحيا .
- وأصبح لزاما علينا إذن لكى نعطى الطفل أو الناشىء رؤية جديدة :

ا ــ أن ننظر أولا فى أنفسنا من الداخل . . وفى تراثنا .

ب ــ وفى نفس الوقت أن نكون واعين بعصرنا : بحسناته وسيئاته ، بأزماته ومنجزاته .

جـ ــ وفى نفس الوقت أن نكون واعين بالتاريخ وبمعنى الإنسان .

ولا يعنى هذا أن أدرس القديم لأقلده وأعمل مثله ، بل لكى يكون الجديد الذى سأقوم بعمله مدعما بالأصول ، وراسيا ومستقرا ، وله جلال العمل الطبيعى الحقيقى . لأن التاريخ جزء أساسى من الإنسان بينما الحيوان والنبات لا تاريخ لهما . له تاريخ طبيعى فقط ولكن التاريخ بالنسبة للإنسان أساسى وبُعد لاغنى عنه إطلاقا .

ماذا نحتاج اليوم ؟

إذا تأملنا أزمات الإنسان على مستوى الأمم المتحدة ، نجد أن لدينا وسائل من القوة والمال بالنسبة للعالم ككل لم يحدث مثلها قبل

ذلك . ونجد أيضا خوفا ورعبا لم يحدث مثلهما من قبل : خوف من أن ينتهى النوع البشرى كله بل والحياة من على الأرض نتيجة التسلح النووى . وفى نفس الوقت نجد أن هؤلاء الذين وصلوا ـ من ناحية العقل والفكر ـ إلى ذرى رائعة ، ليست لديهم رؤية ولو أن عندهم رؤية المسيحية الحقة أو الإسلام الحق بمعنى أن يقتنعوا اقتناعا حقيقيا بأن البشر إخوة لما كان هناك هذا الصراع وتلك الصعوبات التى نراها فى محادثات السياسة النقدية الجديدة حتى يتعطف أهل الشمال على أهل الجنوب . . أو فى محاولة أهل الصناعة استغلال من لديهم الخامات الأولية . . لماذا كل هذا الصراع ؟ لأنهم أسرى قحط نفسى من الرؤية . هم لا يرون إلا أنفسهم فقط . هم يبحثون عن مصالحهم فقط .

حتى نحن فى حالنا أثناء حرب ١٩٧٣ ـ حين وضحت الرؤية ـ كان كل المصريين والمصريات مستعدين أن يعطوا دم قلبهم . . وبعد فترة بردت النار وانطفأ النور وانحسر كل واحد فى نفسه وفى ذاته الضيقة الصغيرة ولم يعد لديه استعداد لعمل أى شىء من الأعمال التى كان يتطوع للقيام بها بل وللقيام بأضعافها عام ١٩٧٣م ـ لماذا ؟ لأنه كانت هناك رؤية ربطت الناس ببعضهم البعض وأعطتهم الدفعة الكبيرة لأعمال البطولة العجيبة التى سمعنا عنها .

مثل هذه النوعية من الحياة . . مثل هذه النوعية من الرؤية هى التى عملت النهضة وكانت هما التى عملت الحضارة المسيحية والحضارة الإسلامية .

فكيف أشعل هذا النور من جديد فى قلب الإنسان حتى لا ينظر إلى الحياة فيشعر أنه وحده ..

كما يحدث اليوم فى البلاد المتقدمه فى فرنسا مثلا : ففرنسا تبحث عن مصلحة فرنسا . وكل فرنسى فى فرنسا يبحث عن مصلحته الذاتية - وكل نقابة فى ذاتها وكل عضو فى نقابة يبحث عن مصلحته الذاتية . وهكذا الحال فى البلاد الأخرى .

من هنا يأتى الجانب المأزوم للنفس البشرية المتقدمة المعاصرة اليوم .. مع العلم أن علوم العصر ، ومراجع العصر ، وتفكيرات العصر ، إلى جانب الآمال التى تشرق فى نفوس الواعين من العصر ، تتطلب رؤية جديدة تناسب وحدة العالم :

فقد وحّد العلم العالم اليوم :
وعن طريق جهاز صغير أصبح من الممكن أن اسمع وأرى
وأعرف ما يجرى فى العالم كله .
أو أن أنتقل من مكان إلى آخر فى نفس اليوم .

ومع ذلك فمازال التفكير والوجدان هو هو الوجدان الأنانى ، والتفكير المحصور فى أن يبحث كلّ عن مصلحته الذاتية . ولا فائدة أن أذكِّره بالمحبة ، فكلنا يعرف المحبة ، إلا أن كلا منا - فى الأساس - يحب نفسه حتى حين أحب إبنى فأنا أحبه كشىء من ممتلكاتى ، وحين أحب بلدى فأنا أحبها لأفتخر بها . فكل أنواع الحب هذه مبنية على الحب بمعناه المنحرف الذى نسميه الأثرة أو الحب المقفول .

أما الرؤية المطلوبة للبشرية اليوم فهى من
الجوهر الأساسى للإسلام . .
والجوهر الأساسى للمسيحية . .
والجوهر الأساسى للعصور الكبيرة أيا كانت . .

ولا يكفينى اليوم أن أطالب بإحياء للإسلام أو للمسيحية . . نحن نريد هذا بالطبع ولابد أن نحافظ عليه وننقيه ونقدمه فى أحسن صورة من صوره . .

ولكن إنسان العصر الحالى له منطقه وله متطلبات
لابد أن أجاوبها حتى تصبح الرؤية الجديدة
لهذا العصر غير مستعارة من الرؤى القديمة .
بل لابد من أن تكون رؤية أصيلة لها جذورها فى إيجابيات العصر .

ودون إدراك أهمية أصالة رؤية جديدة أبنى بها ، وأبشر بها ، وأضىء بها وجدان الإنسان الناشىء ، فإن كل مجهوداتنا ستؤتى قليلا . بينما إذا نجحنا فى أن نجد مفتاح الرؤية الجديدة فسنفجر طاقات حقيقية ليس من الممكن لى أو لأى مجموعة من الناس مهما كبرت أن تفجرها .

● ما هى الرؤية الجديدة الناقصة ؟

● لابد أن أعرف أن أمامى شيئين لكى أُنشِّىء الإنسان الجديد القادم ، والمتفوق على العصبية المغلقة ، وتعرفون أنى من أشد المتحمسين

لمصر ، ولكن تحمسى ليس تعصبا ضد البلاد الأخرى ، فأنا أحب أن يتحمس كل فرد لبلده ولأصله ، على أن يدرك الخير فيه ويؤكده ويأخذه منطلقا . ويترك الشر ، ولكن الأساس أنه لابد أن ينفتح على البشرية كلها ومن أجل البشرية كلها .

فالموضوع الأول والأساسى هو أن العلم اليوم يعطينا إمكانية تربية نوعية من الوجدان قريبة جدا لدعوة الديانات العظيمة سواء كانت إسلامية أو مسيحية أو غيرهما . . هى وحدة الحياة . فنحن نعرف فى علوم الطبيعة مثلا أن المادة والطاقة يمكن أن نوصلها فى النهاية لطاقة . إذن كل ما أمامنا من صور متعددة يمكننا أن نوصله فى النهاية لأساس واحد هو الطاقة . كما أن صورة من صور الطاقة يمكن تحويلها إلى صورة أخرى من صور الطاقة .

طبعا لا أكلم طفلا بهذا الكلام . .
ولكن لابد أن أجعله يدرك هذه الوحدة ؛ وحدة الحياة . .
بأن أعرفه بصور الحياة .

بمعنى أنه من الممكن أن يرى الحياة فى ورقة شجرة مثلا فى صورة لم يرها من قبل . . كذلك فى كثير من الأزهار التى نتحمس كلنا لمرآها دون أن نعرف أسماءها . فهى أمامنا صور جديدة للحياة نريد أن نعرفها .

والنقطة الثانية هى أن الإنسان الناشىء موجود فى طبيعته الرغبة فى أن يتعرف على الأشياء من حوله . . ولكننا نحن الذين نطفىء تلك

الجذوة . وغالبا مايكون السبب هو جهلنا أمام الأسئلة العديدة التى يسألها الطفل فى محاولته معرفة كل شىء حوله . بينما لو أتحنا له فرصة التفتح على الحياة ومعرفة أنه إذا كان يعرف أسماء الأشياء فهذا أمر مطلوب ، ولكنه جزء من المعرفة وليس كل المعرفة ؛ لأنه - فى بعض الأحيان - يكون معرفة إسم الشىء هو نهايته بالنسبة للإنسان ، بينما المطلوب غير ذلك . .

ففى عالم الورد مثلا نجد أن كل وردة ،
هى صورة جديدة للحياة فى صورة وردة ،
ولاتغنى وردة عن وردة .

فإذا نشأنا الإنسان على كيفية عمل وصل بينه وبين الحياة فى صورها المختلفة ، وبدأنا بحديقة الحيوان مثلا ، ليرى النمر . . السبع . . الفيل . . الجمل . . الحمامة . . النعامة . . الخ وكلها صور متعددة لشىء واحد ، فإننا لا ينبغى أن ندرس له هذا ذهنيا فقط بل ندرسه حياتيا ؛ بأن يتعرف بنفسه على هذه الحيوانات حبا ومعاملة .

وقليلا قليلا يصبح عالم الحيوان جزءا من وعيه ، وهنا نكون قد وسعنا وعيه بمفهوم الحياة فى جانب من جوانبها ، ، ثم عليه أن يدرك - بعد ذلك - أن هناك قرابة بيننا نحن الآدميين وبين هذه الحيوانات ؛ فكلنا من عائلة الفقاريات وإن إختلفنا فى الصورة وأن هناك عائلات أخرى كالهلاميات مثلا . .

وبعد فترة يمكنه أن يدرك أن عالم النبات مثلنا ، وهو قريب من أقربائنا ،

إلا أنه بعيد فى شكله عنا ، ولكنه فى الأساس قريب كالنخلة مثلا ؛ فأساسها كأساس الإنسان إلا أنها تقف فى مكانها .. فالإنسان يتغذى وهى تتغذى ، والإنسان يتنفس وهى تتنفس وهكذا . .

● أقول إن تفصيل هذا الموضوع مكتوب فى كتاب الفن وإعادة بناء الشخصية المصرية فى فصل ثقافة الطفل .

ولكن المسألة ليست فى أن يكتب أحد صفحتين أو ثلاثة ، إنما لابد من وجود حملة .. دعوة حتى يتعاون الجميع على هذا . أتصور فى أجهزة الإذاعة المسموعة والمرئية ،، والصحافة .. والمدارس .. والمتاحف .. والمكتبات .. ومحلات بيع لعب الأطفال .. فى كل هذه الانشطة المختلفة أتصور وجود استيعاب للفلسفة الأساسية لهذا النوع من التثقيف ، وهدفه الأساسى هو أن أبنى بالتدريج داخل أعماق النفس الاقتناع الوجدانى وليس الذهنى فحسب .

بأن الحياة كلها نمت بعضها لبعض رغم اختلاف الصور
أى لايوجد فاصل ليس فقط بين إنسان وإنسان
بل بين الإنسان والحيوان ، وبين الإنسان
والحيوان والنبات ، بل والجماد
إن هذا الكل كينونة واحدة ..
حياة واحدة .. هى شهادة التوحيد ،
هنا رؤية مضمرة فى علوم العصر .

٢ — الحكمة فى مخلوقات الله

فى لقاءاتنا الشهرية فى بيت من بيوت الأصدقاء فرصة أن نتعرف على نوع من تفسير معنى الفن والحياة فى ضوء أرواح شقيقة . كنا الشهر الماضى فى بيت زكريا الخنانى وعايدة عبد الكريم ، ونحن اليوم فى بيت محى الدين حسين وفوزية الشيبانى . وأظن أنه يتضح من الزيارتين الوحدة التى تربط البيتين ، وفى نفس الوقت الشخصية المتميزة لكلٍّ منهما . . ولو ضممنا لهما بيتنا فى المرج ، فإن ثلاث نقاط على خط ، يحددوا مسار كيف يمكن على هذا الخط أن يوجد عدد غير متناهى من المراكز ، كلها تجمعها وحدة الهدف ، وتفرد العطاء المتميز لكل من أرواح الزملاء الأشقاء فى الفن والحياة .

وحين أنتقل بين هذين البيتين - وباعتبارى رأيت الأرض من المنبت الأول — فإنى أحس بالنمو وهذا بالتالى يضيف للتفاؤل غير المحدود الذى منحنى الله إياه رغم كل الغيوم والبروق والرعود التى قد تحدث . . فأنا واثق ألا طريق للخلاص غير العمل المستنير .

وكلمة العمل هى ثالث الكلمات

التى يؤكدها تراثنا الروحى
بالإضافة إلى الصبر والصلاة .

إن الله يطلب من الذين يعرفونه أن يصبروا وأن يتواصلوا معه وبعد ذلك أن يعملوا من هذا المنطلق .

● وفكرة العمل هى الفكرة الرئيسية لحديثنا اليوم .

قلنا إن ما ينقص الإنسان اليوم بعامة هو نور يضىء له أمله فى الحياة ، وفى معنى الحياة داخله وخارجه . وتدعيم هذه الرؤية بغرسها بذرة مبكرة فى نفس الطفل وممارسته لها ورعايتها وحسن الاهتمام بها وتدعيمها حتى لا تنحرف ، من أسباب الأمل المنشود .

فكلما كان الأمل كبيرا
كلما احتاج عملا كبيرا وصبرا وصلاة .

● كان العلم - فى القرن الماضى - يتكلم عن العالم باعتباره شبيه بالآله : منتظم ، نعم ، ولكنه لا هدف له ولا غرض . ويمكننا أن نصل به إلى أى شىء نريده ، ولا يوجد فى طبيعة الأشياء ما تهدف إليه الحياة وكانت هذه الفكرة تدعم النظرة المادية والفلسفة المادية التى تعتبر أن الواقع المادى البسيط هو الأساس فى الحياة وبعد ذلك فإن كل القيم وكل الأفكار وكل الأنظمة وكل الديانات وكل الفلسفات عبارة عن نتاج جانبى وليس أساسياً .

وهذه هى الفكرة الخاطئة وراء التفكير الماركسى ، وغيره ، لأن المادية لاتشمل الماركسية فقط بل إن المجتمع الغربى متأثر بها أيضا رغم مسيحيته . . بل إننا هنا فى مصر رغم إسلام الأغلبية ومسيحية الأقلية فإن هذا الطوفان المادى يجرف تفكيرنا عن غير قصد منا ،ونحن ندعمه عن غير وعى منا أيضا :
وذلك فى طريقتنا فى إعداد الطفل الناشىء بأن نلقى إليه المعلومات متناثرة غير مترابطة :

أى أن العلوم تصله ولا رابط يربطها أبدا . فتكون النتيجة أن تكون هناك أكداس من المعلومات بلا معنى وينتج من هذه الاستزادة فى العلم المتقطع الأوصال أن يتخرج الشاب أو الفتاة ولديه حصيلة علمية كبيرة ـ أى نعم ـ ولكنه لا يرى غير ذاته وغير أهدافه الخاصة ، أما طبيعة الأشياء فيما يقال له فهى التناحر على البقاء ، وبقاء الأصلح فى الظروف الموجودة . . والظروف الموجودة سيئه فيتلاءم هو مع هذا السىء بأن يكون أسوأ حتى يكون أصلح ويضمن لنفسه البقاء . ويعتبر أن الباقين لا يدركون وأنهم لو أمكنهم لفعلوا مثله .

نحن نلوم العصر ونحن الذين نزرع الشوك فيه
ونشتكى حين نحصد مازرعناه أصلا .
نحن نسىء لأولادنا حين نعطيهم لا نظام فى
المعلومات ولا معنى فى هذا الجمع . وهذه
الحصيلة من العلوم لاتنير لهم خطا يوصلهم إلى

شىء من المعنى فى الحياة . وينتهى الأمر بأنهم غير سعداء وبأن المجتمع يشقى بهم .

● علينا إذن أن نقاوم التيار الذى ننجرف فيه والذى يعطى المتعلم تفاصيل متناثرة كما لو فككنا كتاب ليس إلى صفحات أو أبواب بل إلى كلمات وحروف وأعطيناها للمتعلم . . إن معنى الكتاب يتوه فى هذه الحالة مهما أعطينا فى علم الطبيعة أوفى علم الكيمياء . . مهما أعطينا فى أى فرع من الفروع ـ وعصرنا ينزع إلى التخصص ـ فلن يعرف شيئا عن الحياة .

ويقولون هذا شىء لا مناص منه . . ونقول بل ممكن علاجه بأن نجمع بين النظرتين : التخصص والشمول . . ومن البدء .

فالطفل وهو بذرة الإنسان عادة ما يكون سليما ونحن الذين نحرفه عن طريق إعطائه عادات من شأنها أن تحرف مجرى حياته . . والعادات ليست بالضرورة فى السلوك الظاهرى الحركى بل ايضا فى السلوك الفكرى والسلوك العاطفى والسلوك الإرادى .

فإذا أعطيناه العادات الصحيحة : بأن نعطيه صورة متكاملة للحياة . . معلومات متكاملة يرتبط بعضها بالبعض ، ونمينا هذا الإتجاه ، وساعدناه على أن يعمل مثل هذا فى سلوكه أيضا ويمارسه ، فإننا مع

الوقت نكون قد أعددناه لكى يرى الحياة فى صورة غير الصورة التى تتحكم فيها العشوائية التى تحكم الفكر المادى .

● ونحن نعلم أن هذه العشوائية قد دخلت الفن : فالفنان الذى يصب الألوان بالإناء على لوح كبير من الخشب ويحركها ، حركات لتتداخل مع بعضها ثم ينشر اللوح بالمنشار إلى قطع لتصبح بعد ذلك عددا من الصور ، يعكس بعمله هذا الفكر العشوائى الذى نقول عنه .

● حتى بعض نظريات التطور : يقول الفكر المادى أن التطور يسير بلا هدف وأنه نتيجة صدفه ، وأن الحياة نفسها وجدت فى هذا الكون صدفة . . وهنا تأتى العبثية : أن يقولوا أن الحياة لا دليل لها من ذاتها وأنه صحيح فيها قوانين ولكن بلا هدف ولاغرض .

ما الذى دعا الإنسان ليفكر هذا التفكير ؟

هنا يطول التحليل . . ولكنا سنشرحه بشكل بسيط جدا :

نعرف أن العلوم بدأت بعيدة عن الإنسان فقد بدأت بالفلك وهو أبعد ما يكون عن الإنسان . أما آخر العلوم نضجا فهو علم النفس أى دخيلة النفس البشرية . وكلما اقترب العلم من النفس كلما صعب واحتاج لوعى أكبر .

ولما درس الإنسان ـ بعد الفلك والانتظام فيه ـ علوم الطبيعة وأخذ منها المادة ، درس المادة كما لو كانت شيئا قائما بذاته . . وحاول

حسب الأسلوب العلمى أن يتجرد فنظر للمادة ووجد أنه فعلا فيها انتظام فى سلوكها ولكن لم يظهر له أن هناك غرض أو هدف وراء هذا الانتظام . وكان من الممكن بسهولة أن ينتقل من المادة إلى الإنسان : فأنا كإنسان جسمى مكون من العناصر الموجودة فى الأرض وهذه العناصر تُحكم بقوانين ـ هنا قفز الإنسان إلى النتيجة : فهو مكون من مجموعة هذه العناصر : بمعنى أنه لو تحلل جسمه فلن نجد فيه عنصرا غير موجود فى الأرض . وهذه العناصر حين أدرسها أجد أنه صحيح لها قوانين تحكم سلوكها وتصرفاتها ولكن لايبين لى إطلاقا أن هناك هدفا من ورائها .

فإذا كان هذا هو الأسلوب الذى تم ـ باختصار شديد جدا ـ للوصول عن طريق العلم للفكر المادى ، فهل هناك أشياء حديثة تكشف خلاف ذلك ؟

- **طبعا هناك الكثير . . فاليوم ، من الصعب جدا على عالِم بمعنى الكلمة أن يصدق أن المسئول عن التطور الخلاق فى الحياه هو العشوائية : بمعنى أن هذا العمل المعجز الذى أمامنا وهو الطفل مجرد صدفة . . هذا النظام العجيب الذى يجمع معجزة البصر ومعجزة السمع ومعجزة الدورة الدموية ومعجزة القلب ومعجزة الجهاز التنفسى والهيكل العظمى والأنسجة المختلفة والمواد المختلفة التى تخلقت جميعها من الخلية الأولى ، هل من المعقول أن يتصور أحد أن هذا جاء عن طريق الصدفة .**

أظن أن الأمر يحتاج إلى تجنى كبير جدا أن يتصور أحد أن كل هذا حدث عن طريق المصادفة المحضة .

● هنا نلاحظ تناقضا واضحا بين الإنسان العادى البسيط الذى لم يدخل مدارس ويعرف أن هذا كله من صنع الله ويطمئن له . . وبين الذى يذهب للمدارس فنعلمه أنه فى النهاية يمكنه أن يقول إن كل هذا إنما هو صدفة .

أليس هذا التناقض عجيبا كما لو كنا نربى الإنسان فى الغفلة .

● بهذه المناسبة أذكر أنه فى معرض الكتاب الأخير وجدت كتابا جميلا عن العلوم الإسلامية لمؤلف إيرانى ممتاز هو « نصر على » ويشترك معه شخصية فرنسية زودته بمجموعة من الصور عن العلوم الإسلامية من منمنمات وغيرها ، والكتاب مطبوع فى تونس ، وهو تحفة رائعة فى فن الكتاب وفى نفس الوقت أسلوب المؤلف فى التفكير يسر : لأنه أولا يفهم العصر جيدا وثانيا يفهم الثقافة الإسلامية جيدا .

ومن هذا الأفق يقول « أنه من العجيب أنه عندما اعتقد الإنسان فى العصر الحاضر أن هذا العالم هو مقره بدأ يخربه . بينما فى أيام الإسلام والحضارات القديمة حين كان هذا العالم يعتبر مجرد ممر إلى العالم الآخر كان الإنسان أحرص ما يكون على هذه الأرض » .

إنها حقا لمفارقة .

إن فكرة المؤلف أن العلوم الإسلامية كانت تنظر للصورة متكاملة .

بمعنى الأرضيات والعلويات ـ وبنظرة كونية شاملة : فحين كانت تدرس علوم الطبيعة لم تكن تؤخذ مستقلة وتعمم منها على باقى الحياة بل ترى الأجرام السماوية وترى المعادن والجمادات والنباتات والحيوانات وترى الإنسان وبعد ذلك ترى العلويات حتى تصل إلى الله ، وتدرك هذا كله ككل ، بينه وبين بعضه علاقات مترابطة . . وحدة شاملة . وكان يشعر الإنسان فى ضوء هذا أن هذا العالم ممر ، وفى هذه الحالة كان الإنسان أحرص ما يكون على حياة الأرض عن طريق ثقافته وطريقة إنتاجه دون أن يلوث شيئا منها .

أمافى العصر الحديث حين بدأوا يقولون فلنترك العلويات وسنقيم الفردوس على الأرض هنا فليس لنا إلا هذه الحياة ، بدأوا يلوثونها ويخربونها ويدمرونها وأصبحت الحياة كلها مهددة .

- وتذكرون أننا منذ زمن ونحن نفرق بين العصور القديمة والحديثة نقول إن الفكر الأصيل عندنا كان يتواصل مع الحياة وإن هدفه الأساسى أن يتحد بالحياة ، وبسر الحياة ، وأن يعمل من هذا المنطلق .

كما كنا نقول إن فكرة هذه الفلسفة كونية بينما فلسفة الإنسان الغربى المعاصر فلسفة إنسانية توجد فاصلا بين الإنسان والطبيعة وتعتبر أن مايهم هو الإنسان وأن مايشغلها هو الانتصار على الطبيعة . . أما ما وراء هذه الطبيعة فهو من الغيبيات ، ومن الخرافة أن يشغل الإنسان نفسه بها .

وكنا ـ ومازلنا ـ نقول إن الفرق بين هذين الموقفين أن موقف الحضارة الأصيلة سواء كانت فى العصور القديمة أو العصور الوسيطة التى تعتبر الإنسان جزاء من كل كبير ، هدفها الأسمى هو المقدس وهو الغاية وأن على الإنسان أن يسترشد بهديه وأن يتواصل معه ويصبر على الطريق إليه ويعمل من هذا المنطلق . . وموقف الفلسفة التى تسير عليها الحضارة الحديثة أنها تقول أنا الإنسان . . أنا الأساس وأنا الغاية . . وقد جئت إلى هذه الأرض عن طريق الصدفة . . وعلىّ أن أقتحم هذه الأرض وأنتصر عليها . . وأتسلط عليها وأواجهها لتحقيق أهدافى أنا . . والبقاء للأصلح . . أما ما وراء هذا فهو خرافة . . وليس من حقى أن أشغل نفسى بمثل هذه الأمور . . فأنا اليوم موجود وسط الغنى ووسط القوة .

إلا أنه يعيش وسط الخوف والرعب ، بينما كان فى العصور القديمة والوسيطة هناك طعم مختلف للحياة : كان هناك نوع من السكينة رغم ماكان موجودا قطعا من مآسى . . كان هناك نوع من السعادة والقناعة النفسية نتيجة عدم التركيز على الذات . .

والعمل على التواصل مع الحياة والتصادق معها والتعاون معها والاتحاد بها . . والعمل وفق هدفها الكبير .

● ونحن نركب الفلسفة الحديثة فى عقول الناس ونقول إن هذا هو التعليم وهذه هى الثقافة بلا وعى منا أننا بأنفسنا نوجد الداء الذى يقلقنا على المستوى الشخصى الفردى وعلى المستوى العالمى .

ونقول نحن ـ أصدقاء الفن والحياة ـ فى عام الطفل إن علينا أن ندعو المفكرين أن يمحصوا هذا الفكر معنا بحيث إذا كان حكمنا هذا صحيحا فلابد أن نعالج الأمر من منبته .. من أصله .

- فى معرض الكتاب وجدت كتابا آخر إسمه « الله يتجلى فى عصر العلم » وهو كتاب مترجم عن الأمريكية لحوالى ٣٠ عالم من أمريكا بدعوة من المحرر وهو من رجال الدين المسيحيين يسألهم ـ كعلماء ـ كيف وجدوا الله أى أن كلا من هؤلاء العلماء الثلاثين لا يتكلم بأى صفة غير صفة أنه رجل علم ومن خبرته العلمية يتكلم .

ولقد قرأت هذا الكتاب مرات عديدة لأخرج بالمنطق المشترك بين هؤلاء الثلاثين : إن كلا منهم عالم معاصر مدوّن إسمه ووظائفه العلمية وتخصصه ودرجاته العلمية ووجدت أن حوالى ٧٠٪ منهم ينفى إمكانية فكرة المصادفة أى ينفى أن الخلق الذى حدث للكون كان نتيجة مصادفة ، وينفيها علميا أيضا . وهم يكشفون أن عمر الأرض خمسة آلاف مليون سنة : أى أن المهم أنه فى المنطق العلمى ما يسمح بأن نقول أن هذا العالم غير أزلى وأن له بداية إذن هنا أصبح الكون المادى هذا له بداية .. ثم .. وحسب القانون الثانى للديناميكا فإن هذا الكون بما فيه من شموس وأقمار ومجرات ، مآله فى النهاية الموت لأن الحرارة تنتقل من الأعلى حرارة إلى الأقل وستظل كذلك حتى يتساوى الكل فيموت الكون لأنه لم يعد هناك انتقال .

إذن الكون له بداية ونهاية .

وكل شيء له بداية ونهاية لابد أن يكون مصنوعا . فكيف صنع ؟

هذ هو الفكر الذى أحاول أن أجمع لكم صورة عامه عنه من كلام هؤلاء الثلاثين عالما .

كانت هذه نقطة .

والنقطة الثانية : أنهم يقولون إن هذا النظام الموجود عجيب جدا . إن النظرة العلمية نفسها ديانة إلا أنها انحرفت فى يد الماديين . لأنى كعالِم لابد أن يوجد عندى إيمان أولا بأن هناك قوانين أبحث عنها وعن تحقيقها . فإذا كانت الأشياء تتم عشوائيا فعلى ماذا سأبحث . فأنا أبدأ العمل إذا كنت أؤمن أن هناك نظاما يحكم سلوك الأشياء فإذا لم أعتقد فى هذا النظام فلا فائدة من بحثى .

إذن وراء البحث العلمى نفسه هناك إيمان بأن هناك قانونا إلا أنه غير مدعم بالبحث . وهو أمر يوازى ماقلته من أن الرؤية التى تنير حياة الناس تبدأ قلبيا : فى النفس من الداخل ثم تجد المراجع بعد ذلك حين البحث .

وكل العلماء يبدأون بأن لهذا الكون نظاما ثم يبدأون فى أبحاثهم ليجدوا الأنظمه المختلفة .

والنقطة الثالثة : يتكلمون عن شيء ذكر أكثر من مرة : هناك فى علم الطبيعة ما يسمى بالترتيب الدورى للعناصر : أى أنهم حين يحللون

مادة هذا الكون سواء على هذه الأرض أو فى جسمى أو فى الأجرام السماوية يجدون عددا محدودا من العناصر بحيث أن المادة معقدة التركيب بعد التحليل لاتخرج عن هذه العناصر المحدودة .

وقد رتبوا هذه العناصر حسب وزنها الذرى : الوزن الذرى واحد ثم اثنين فثلاثة وهكذا بحيث أنه إذا لم يوجد العنصر ذو الوزن الذرى المتتالى فهم يكونون واثقين من اكتشافه يوما ما . . ليس فقط اكتشافه بل إنهم يتنبأون بصفاته لأن العناصر مقسمة إلى مجموعات تتشابه كل مجموعة فى صفاتها .

لهذا وجدوا أن هذه العناصر ليست إعتباطية إنما هى موجودة ولها فى سلوكها وصفاتها وأنظمتها نظام مصمم بتنسيق وحكمة .

- وتصور أن تأتى مجموعة من العلماء لتقول أن كل هذا وُجد من نفسه وأنه خلق بالصدفة وأنه بالصدفة أخذ هذا النظام . .

هل هذا معقول ؟

لقد أثبت العلماء - أنه لكى يحدث هذا بالصدفة - بعد بحث فى الخلية باعتبارها أصل الكائن الحى وحسب قوانين الصدفة الإحصائية أن الأمر يحتاج لعدد من السنين فيه واحد وعن يمينه مائة وستين صفرا .

لهذا فإن الكتاب يحاول أن ينفى - علميا - الصدفة . وأن يؤكد التنسيق الموجود ، والتجاوب بين الأشياء بعضها والبعض الآخر .

وإنك لتخشع أمام شرح أحد العلماء عن التراب ؛ ذلك الذى نطأه

بأقدامنا والذى خلقنا منه وإليه نعود .

● المهم أن الفكر العلمى يقول أن خالق هذا الكون بديع حكيم فوق ما يمكن أن يتصوره الإنسان .

وعلينا أن نطالب العلماء فى مختلف نواحى إختصاصاتهم أن يعيدوا ترتيب مادتهم العلمية بحيث توضع كل نقطة منها فى مكانها من الكل ، بحيث لا نعطى الناشىء معلومات مجزأة ، إنما معلومات متكاملة مع بعضها البعض . فنحن نريد أن نربى الناشىء .

ونربيه يعنى ننميه ونوعيه فى إدراك أن هذه الحياة كل كبير ، بداخلها مجموعة مكونات متكاملة ، بداخلها مكونات أصغر هى أيضا متكاملة . . والكل يتكامل مع بعضه ويصنع فى النهاية وحدة واحدة كبيرة .

وهذا ليس تعسفا ، بل هو ما تشير إليه المادة العلمية المتاحة اليوم ، والتى - إذا تثقف فيها الإنسان الناشىء يصل - فيما بعد - لرؤية للحياة أقرب للحقيقة ، ويصبح لديه إدراك بصيرى لأن يرى الحكمة فى مخلوقات الله .

٣ — ركيزة الإيمان

قلنا إن ماينقص دنيا الفكر فى التخطيط لثقافة الطفل عندنا وبعامة هو أننا لاننظر - فى الزمن الطويل - لأثر بذور الثقافة التى نزرعها فى النفس الناشئة . ومع مرور الوقت وبانتقال الطفل إلى مرحلة الشباب تثمر هذه البذور التى زرعناها بلا وعى منا وتنتج شوكا . ثم نبدأ فى الشكوى من هذا الشوك ونحاول الإصلاح .

ولملافاة ذلك قلنا أنه يجب أن نزرع فيه نورا يستضىء به فى معمعان رحلة طويلة بطول حياته يقابله اثناءها وحوش كثيرة وظلمات بلا حدود ، ويحتاج فيها لنبراس وهادى ومرشد .

- فى أيام الاستقرار - كما كان فى عصور مصر الأولى مثلا حيث استتباب الحضارة المصرية فى عصر الأهرام فى الدولة القديمة الفرعونية - وفيما يختص بإعداد الطفولة - فإن بذور الحضارة كانت توضع بلا وعى وقد يكون بشبه وعى وكانوا يحصدون ما زرعوه : حضارة مستمرة .

أما فى فترات الانتقال الشبيهة بفترتنا اليوم فكانت تنحل المُثُل : أى

أن ما كان متفقا عليه من أعراف ومن قيم انحل وأصبح لا ضابط له أو ميزان وفى مثل هذه المرحلة يتطلب الأمر وعيا أشد لكى نرى ما هى البذورَ الواجب وضعها .. والبذور هى العادات التى نغرسها فى نفوس النشء .. هى أنماط من السلوك .. أنماط من التفكير .. أنماط من العاطفة .. أنماط فى الحياة نعد الناشىء لها لتثمر فيما بعد

● نحن نغفل عن غياب سياسة عامة وفلسفة للتربية عامة لأننا نأخذ الكثير من الأمور مأخذا سطحيا كالثقافة والحرية والتعبير عن الذات ، ويبدو أننا كلنا كما لو كنا متفقين على معانى هذه الكلمات بينما الحقيقة أن كثيرين لا يعلمون مأذا تعنى ثقافة ولا حرية ولا المقصود بالتعبير عن الذات . نحن إذن غير متفقين وإذا اتفقنا ففى الأغلب مايكون اتفاقنا على خطأ من الأخطاء .

وهذا ليس كلامى وإن كنت مقتنعا به .

وممن قالوه « تولوستوى » فى اعترافاته . وهو كتاب قيم ترجم إلى العربية .

كان « تولوستوى » سعيدا فى حياته ؛ لديه المال والعيال والعز والسمعة والإنتاج الأدبى المعترف به أى أنه كان أميراً من أمراء الأدب ، وأميرا من أمراء الثراء . ونحن نعرف من أعماله العظيمة « أنا كارنينا » و « الحرب والسلام » .. كان قمة الرواية الروسية والرواية الروسية قمة فى الأدب الأوروبى .

ولكن هذا الرجل كان يراوده بين حين وآخر سؤال ينبجس من أعماق

نفسه عن معنى كل هذا لم يكن بالرجل الفاشل الذى يسأل عن معنى الحياة بل كان منتجا وموفقا كأحسن مايكون الإنتاج وأحسن مايكون التوفيق حسب العرف الجارى ومع ذلك كان يشعر بين حين وآخر أن ثمة سؤال موجود وملح لماذا أنا موجود ؟ ! ماهى القيم ؟ . وبدأ يسأل المثقفين من حوله عن معنى الثقافة وفائدتها ولم يجبه أحد إجابة شافيه علما بأن مثقفى عصره كانوا مثقفين من أعلى طراز أنتجته الحضارة الأوروبية . . يقول فى حكاية عن نفسه أنه وجد أن هؤلاء المثقفين لأنهم لا يعرفون هدفا لحياتهم ولا هدفا للثقافة يؤكدون ـ تأكيدا أكثر من اللازم ـ معنى وأهمية الثقافة .

ثم إنه رجل مسيحى النشأة . . فوجد بينه وبين نفسه ـ أنه قد ارتكب من الخطايا والذنوب مايدينه به المقياس الأخلاقى المسيحى بدل المرة مرات ومع ذلك ـ يقول هو ـ « كنت معتبرا إنسانا شريفا لا يعترض أحد على سلوكى »

ثم وجد أن هذه المشكلة لم تظهر لديه بين يوم وليلة ، بل كان كلما يلح عليه السؤال يقول لنفسه « حين أفرغ سأعرف معنى كل هذا حتى ألحت عليه الأزمة بدرجة شديدة وهو فى حوالى الخمسين من عمره لدرجة اضطرته غصبا أن يركز عليها ويفكر فيها .

وبعد رحلة طويلة مع الفكر وجد أن لا شىء ممكن أن يكون دليلا له فى حياته أحسن ولا أهم ولا أعظم من حياة السيد المسيح . . فأخذ بمبادىء المسيح المعروفة فى نصيحة الجبل وبدأ يعتبرها مقياسه ، ،

فوجد أن الكنيسة غير مسيحية .. ثم وجد أن الدولة كلها بما فيها الإمبراطور ضد المسيح .. وأن مجتمع الصفوة منحل ..

فبدأ يثور على المجتمع وعلى الدولة وعلى الكنيسة . وأهم من هذا كله أنه بدأ يثور على نفسه وعلى ثروته وعلى سمعته الأدبية : فبدأ يتبرأ من أعماله الأدبيه ، ويعتبر ألا قيمة لها بمقياس المسيحية الذى اطمأنت له نفسه .. ثم قرر أن يتنازل عن ثروته ويأكل من كسب يديه . حتى دخل الكتب فكر أيضا أن يتنازل عنه .
وكان نتيجة لهذا أن بدأ الشقاق فى جو العائلة واستفحلت الأزمة إلا أن نفسه هو بدأت تستقر روحيا

● ما يهمنى فى هذه القصة أن « تولوستوى » كان شاهدا على الحضارة الأوروبية فى عصره . ومن ضمن ما ثار عليه كان تراث أوروبا الثقافى فى ناحيتيه الفنية والأدبية على أساس أن الفلسفة المبنى عليها هذا التراث تعتبر أن الجمال هو مايسرّ وأن العالم يسير وراء المتعة واللذة وأن هذا معناه إنحلال البشرية وهبوط القيم .

كان « لتولوستوى » تأثير على كثيرين منهم « غاندى » . وكثيرون حاولوا أن يعيشوا عيشته ، ولكن لم يكن الأمر سهلا ، لأن ـ كما نعرف ـ النظرة المسيحية ليست منصبة على سياسة الحياة كما يمكن أن يحياها قيصر ولا الدولة ، لأن الدولة والحرب ، وكل هذا الزيف الأرضى ، قيم ضد صميم وجوهر المسيحية .

إنما هو نجح فى أن يكشف أن هناك شقاقا فى قلب العالم الغربى ،

بين ، ما يدعيه من أنه يدين بالمسيحية ، وما يمارسه فى حياته الاجتماعية والثقافية والسياسية البعيد كل البعد عن القيم المسيحية .

- ونحن حين نريد أن نثقف طفلنا فإننا نستورد له ثقافة المثقفين الذين تكلم عنهم تولوستوى الذين لا يعرفون كنه وثمرة ما يعملون وتكون النتيجة أن يخرج إنسان إما لايعرف كهؤلاء المثقفين أو إنسان يصنع مجتمعا شاذا فى قيمه وفى ممارسته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والذى لا أظن أن أحدا من كبار مفكرى الغرب اليوم يوافق عليه أو يرضى عنه . . .

- وكان من نتيجة ذلك أن قامت الثورة الروسية .

ولكن الثورة الروسية حين ألقت بقيصر ألقت معه بالمسيح أيضا ووضعت مكانهما الحزب الشيوعى وعملت من هذا النظام دينا وبدأت ثقافتهم تدخل فى أزمة حكم الحزب .

- ما أريد أن أأكده أن هناك وعيا بأن الثقافة الغربية تمر فى أزمة . « وتولوستوى » ليس الشاهد الوحيد فهناك « شبنجلر » الألمانى فى كتابه الذى يعتبر مجرد عنوانه « إنحطاط الغرب » دليل وشاهد على ما نريد أن نقول .

هؤلاء الفلاسفة وغيرهم كثير من المفكرين يتكلمون عن إفلاس الثقافة والحضارة الغربية . .

ونحن هنا نحاول أن نغرب ثقافتنا وننقلها ونبحث عن كيفية تربية أولادنا وتغذيتهم على هذه الثمار .

إن المسألة تحتاج إلى وقفة من مفكرينا :
لابد أن يعرفوا أن كلمة ثقافة وحدها
لا تكفى ، بل لابد أن يكون الأمر واضحا.أى نوع من الثقافة .

● ليس معنى هذا أننا نطالب بثقافة مملاة كثقافة روسيا أو كما كان الحال فى ألمانيا وأذكر كلمة « جورنج » الألمانى الذى كان يقول إنه عندما يسمع كلمة ثقافة يرفع صمام الأمن من مسدسه ؛ أى أن الثقافة كانت تجعله مستعدا لارتكاب جريمة قتل أمام من يتكلم عن الثقافة . .

لاهذا ولا نقيضه هما الاختياران الوحيدان أمامنا فأظن أننا كلنا لا نحب الرقابة فى ناحية الثقافة اللهم إلا إذا كانت رقابه ذاتيه من الوعى الذاتى للفنان نفسه أو المثقف نفسه أو من الجمهور ؛ أى أن يكون للمثقف أو للجمهور من نفسه محاسب وضمير ؛ فالجمهور يمكنه أن يحكم على مثقف ما بأنه فاسد ، وعلى آخر بأن إنتاجه منحل ، وعلى ثالث بأنه ممتاز . . ولكن لا نرضى أن يأتى بوليس ثقافى ليمنع هذا أو ذاك قد ينبه الناقد إلى عمل منحل ، ولكن الدولة لاتصادره اللهم إلا فى حدود الخطر على أمن الدولة ، لأن الدولة مسئولة عن حماية المجتمع وأمنه ضد الجريمة قبل وقوعها .

● ونحن نقول ـ كأصدقاء فن وحياة ـ انتبهوا ياحضرات المخططين على المستويات المختلفة ، وعندنا اليوم مجلس قومى للثقافة يخطط لعام ٢٠٠٠ وما بعد ذلك .. إن الأمور لا تترك على عواهنها تحت الأسماء الطنانة من ثقافة وحرية وأشياء من هذا القبيل ، ولا بد أن نعرف أن ثقافة الطفل الغير الواعية ـ هذه العملة الشائعة اليوم ـ على الأقل سبق أن بعض الناس من مفكرى الصف الأول أدانوها باعتبارها تبلبل الفكر وبدل أن تصل بالإنسان إلى بر السلامة تؤدى به إلى طريق الندامة .

هذه هى القضية التى أطمع أن يتمكن
أصدقاء الفن والحياة من أن ينقلوها إلى المسئولين

● هل نحن نتكلم فقط أم لدينا بديل ..

إننا نقول كلمة هامة كمصريين .. وآدميين لديهم وعى عالمى متفتح

إنه لا يمكن لإنسان أن يسعد بلا إيمان .
لا يمكن للإنسان من الناحية النفسية أن
يسعد وتستقر حياته بدون إيمان .

بهذه المناسبة هناك كتاب كان قد ترجمه الدكتور « ثروت عكاشة » إسمه « العودة إلى الإيمان » وهو من تأليف طبيب نفسى يحكى فيه هذا الطبيب كيف أنه وجد ـ من الناحية العملية أن مرضاه يعانون من عدم وجود محور لحياتهم ممكن أن تنسجم حوله .. أى لا يوجد هدف .. لا يوجد مقياس .. لا يوجد اطمئنان إلى قيم أساسيه يمكن للضمير أن يستريح لها وتعتبر بوصلة فى الحياة .

● هناك كتاب آخر إسمه « العلم يدعو إلى الإيمان » لعالم أمريكى كان يرأس أكاديمية العلوم فى أمريكا وترجمة الأستاذ الفلكى وهو يدعم فكرة كتاب الحديث الماضى « الله يتجلى فى عصر العلم » الذى ناقشنا فكرته وخرجنا باقتراح أن نقدم المادة العلمية لأولادنا ـ سواء على سبيل التعليم بمختلف درجاته أو كتثقيف فى مختلف الوسائل سواء كانت إذاعة أو نشر كتب أو صحف ومجلات أو إذاعة مرئية ـ بحيث يكون من شأنها أن تتكامل وتعطى جملاً مفهومة من حكمة الحياة .

● وهنا نقترح :

أن ندعو لشبه مؤتمر صغير أو حلقة دراسية صغيرة ندعو لها مجموعة ممن لديهم اطلاع علمى واسع ورغبة فى الخدمة لكى يفكر معنا فى كيفية تحقيق هذه الفكرة ، لكى توجد أمثلة عديده من تصنيف المادة العلمية التى تحدث تواصلا بين الناشىء وبين حكمة الوجود : كأن أشرح أنى وأنا أتكلم الآن داخلى وداخل كل إنسان آيات عجيبة . . كون عجيب من التناسق : فأنا أتكلم وأتحرك وأرى وأسمع وأتنفس ودورتى الدموية مستمرة . . إن الحياة مصنوعة بروعة شديدة وبما يدعو إلى الخشية ونظام قلب الإنسان وكيف يعمل . . والتنفس وكيف يستمر . . وتمثيل الطعام . . والفكر . . والذاكرة . . كيف يبدأ الجسم بهذه الخلايا المليونية العديدة من خلية واحدة . . ثم كيف يمكن أن يتجاوب مع الضغط الجوى بضغط من الداخل يعادله . . وعلاقته بالعناصر المختلفة والنسب المختلفة التى يعمل

بها والروافع التى تعمل فى يديه وأرجله وعموده الفقرى وكل كيانه عالم من الحكمة المتجسدة . فإذا أمكن أننا حين نعطى المادة العلمية نعطيها متكاملة بحيث يتضح منها بشكل بليغ أن الكون ملىء بحكم ، وحكم من وراء الخيال الإنسانى : إذا أمكن هذا فإننا نعد مستقبلا لشجرة الإيمان فى ضمير الإنسان ، بعد أن نكون قد غرسنا بذورها من زمن . . طبعا هو أسهل جدا أن نقدم المادة هكذا كما تقدم فى المقررات فى المدارس أو كما تقدم فى بعض الصحف بهدف أن نثير فى النهاية اندهاش لاتترسب بعده حكمة مضيئة .

ولكننا لا نريد العجب والاندهاش العابر فقط إنما نريد أن يحدث تفتحا للحكمة العجيبة الموجودة فى الكون فى وعى الناشىء حتى يزداد فقها أكثر وأكثر لحكمة الحياة كلما نما . وتتمحور حياته بعد ذلك حول طقس هذه الحكمة ولا يقف موقف تولوستوى الذى لم يفهم معنى للحياة قبل الخمسين من عمره لأن أمثال هذه الأسئلة لايجاوب عليها بكلام منطقى إنما ـ كما يقول يونج ـ يجاوب على مثل هذه المسائل بدرجة من الوعى : أى حين تنتقل من أفق اللاوعى فى هذه الحالة إلى أفق الوعى بالتناسق الموجود فى الحياة يصبح السؤال بذاته غير ذى موضوع . ويمكن للإنسان أن يدرك أن

معنى حياته حسب الديانه الإسلامية
أو المسيحية أو المصرية القديمة
أنه أصبح أداة بر وخير فى

هذه الأرض وليس أداة تحطيم
أداة محبة وليس أداة موت وهلاك

● **أريد أن أضيف اليوم أن لنا اهتماما بالناحية التشكيلية . لا أقول الفنية بل التشكيلية . لأن عملية التشكيل الكبرى هى تشكيل هذا الكون الذى تم بناؤه بحكمة . وهو يتكلم بلغة لم ينفتح عليها العلم بعد . فالعلم لايعرف فى ناحية الشكل والحكمة فى بنائه على هذه الصورة أو تلك .**

تأملوا المحارات . . القرون . . الثمار . . الأزهار . . الجبال . . الأنهار . . الأمواج . . النجوم . . كلها تسير وفق قوانين يكشف العلم جانبا منها إلا أن هناك فى تشكيلها وكيفيته مادة وحكمة ليست فى متناول العلم بعد ولا فى متناول الفن ولا النقد كما ينبغى أن يحدث .

● **نقول كمسلمين إن لدينا أشياء ثلاثة نهتدى بها**
(أ) ــ القرآن وهو كتاب الله المقروء والمسموع
(ب) ــ الطبيعة وهو كتاب الله المرئى الذى يوجه النظر دائما لتأمل كيفية بنائها باعتبارها مصدر هداية وحكمة ونور للقلب البشرى .
جـ ــ سلوك النبى وحياته

وأنا أتكلم من زاويتنا وهى ناحية التشكيل : أى الاهتمام بالحكمة المضمرة فى كيفية بناء الكون باعتبار أن هذا المنبع جزء مهم جدا فى تثقيف الطفل وهو منسى حاليا : لأن التربية الفنية عندنا فى حالة هرج ومرج عجيبين . فقد أصبحوا يشعرون أن دراسة التراث والطبيعة فى

كليات التربية الفنية علامة تأخر وأن من يدرسها قوم متخلفون فى زعمهم

● وأقول بل من المهم جدا أن أربط بين قلب الإنسان وقلب الطبيعة عن طريق الوسيلة المرئية للخلق الطبيعى والتى تسير الأعمال الفنية فى أسماها ، على هديها فى ناحية الخلق الفنى .

● نخلص من هذا إلى القول أن فن التربية اليوم لايصدر عن فلسفة حياة . والأمور من هذا القبيل لا تزرع عن طريق الإملاء ، إنما تبنى الخطة لتراعى أن كل صغيرة وكبيرة تصدر من المربين إنما هى لتبنى هذا النظام من الرؤية الذى نهدف له وهو أن يتحصل الإنسان فيما بعد على رؤية القيمة الأم الأساسية التى كانت تؤكدها كل ديانات البشرية .

ولا أريد للإنسان أن يرجع الى الدين يأسا
كما فعل « تولوستوى » إنما أريده أن يعد
من نشأته لإدراك الحكم العجيبة التى اتفقت
عليهاالديانات وأكدتها وهدت بها الإنسان فى حياته ،

ولم يصبح من السهل اليوم أن نأخذها بلا وعى ، بل لابد أن نقبلها بوعى ومن خبرة ذاتيه .

● كما جاء فى اعترافات أخرى ، هى اعترافات « الغزالى » :
والإمام « الغزالى » كان أستاذا عظيما ، معترفا به فى العالم

الإسلامى ، وقيمته لا شك فيها . ولكنه ـ بينه وبين نفسه كما جاء فى حكايته عن نفسه ـ انتابته أزمه نفسية منعته من النطق ، فقد اهتز فى نفسه سلطان الكلام عن ثقة عمادها التقليد . ولم يفلح العلاج فى إعادة النطق .

وأزمته كانت واضحة ؛ فقد حدث انشقاق أو فصام فى نفسه . . إذ أصبحت الأعماق غير مطمئنة للسلوك .

وبدأ يدرس أقوال الفلاسفة . . والآراء المختلفة . . وفى النهاية اهتدى إلى الاطمئنان وكان طريقه طريق الصوفية الذين يصلون إلى الإيمان الدينى عن طريق الرؤية والذوق أى الخبرة المباشرة .

هناك أيضا شخصية أخرى سارت فى مثل هذا الطريق هو « بوذا » : ولد « بوذا » فى بيئة من ديانة من الديانات الآسيوية الكبيرة هى الهندوكية لها تقاليد كبيرة وعريقة ولكنها أخذت تنحل وتفتر وتحتاج لإعادة اتصال بالمنابع الأساسية مرة أخرى .

ومر « بوذا » بتجربة كتجربة « الغزالى » و « تولوستوى » ولو أنه كان سابقا لهما بقرون . وذهب إلى الفلسفات والمعلمين . ثم فتح الله عليه وهو جالس تحت شجرة من أشجار التين البنغالى ، لذلك يسمونها شجرة بوذا . وبوذا يعنى الإشراق ، أى إشراق المعرفة .

تحت هذه الشجرة جلس يفكر بعد يأسه من كل التعاليم التى سمعها ثم أشرق النور فى نفسه .

وطريق « بوذا » لطيف ؛ لأنه معلم . ونحن نعتز بعملية التعليم :
كانوا إذا سألوه عن الله يسكت ويصمت صمتا تاما .
وفى رأيى أنه كان يصمت كمعلم لأن مثل هذه الأمور لا يحق لها أن تناقش بين الناس . وأعتقد أن هناك فى أحاديث النبى أن الإنسان لا يخوض فى مثل هذه الأمور .

● بالذهن وحده لايصل الإنسان . .
إنما بنمط معين من الحياة ومن السلوك . فحواه :
تصفية القلب من الأنانية . . ومن الخوف . . ومن الرغبة . . ومن الجزع . . ومن الطمع
وحين يصفو القلب من هذه « المكارات » تشرق فيه أنوار الحق .

● وصمت « بوذا » إذا سُئل عن وجود الله ـ فى تقديرى ـ كان بسبب أنه كان يدرك أن هذا السائل شخص لازال وسط ظلمات الخوف والطمع والرغبة بينما هو كان يتكلم عن الطريق ، وهدفه تصفية النفس من أفق الذات الأمارة بالسوء إلى النفس المطمئنة . وحين تخلص النفس من السوء ، وتتخلص من شرور الأنانية الصغيرة وتشرق فيها الأنوار القدسية لا تحتاج إلى سؤالها هذا .

● إننا كمعاصرين فى هذه المرحلة من انحلال الثقافة ، وانحلال القيم ، وفى الفوضى الشائعة ، محتاجون إلى وقفة لكى نعد للقرن القادم الذى سيعيش فيه أولادنا . ولكى يعيشوا سعداء علينا أن

نعطيهم الأسباب من خبرة العصور الماضية . . ليست الأسباب التى تضللهم وتبعدهم عن الإيمان ، بل الأسباب التى قد تهديهم إلى الإيمان المتجدد والمكين . . ونربيهم على إدراك أنه لا بقاء للأثرة . . ولا للخوف ، بل البقاء للصفاء النفسى الذى سيصبح - مع أشياء أخرى - ركيزة الاطمئنان .

● ونحن كمجموعة أصدقاء الفن والحياة ندرك أن جزءا أساسيا من عملنا هو تأمل الطبيعة ، فتأمل صنع الله الذى أتقن كل شىء ، فن .

وأساس عملنا التركيز والدراسة العلمية لفن تأمل الطبيعة ، ويمكن لأعمالنا - حين تعرض - أن تكشف كيف ترى الطبيعة . . وكيف يكون الصفاء النفسى . . وكيف يكون الاطمئنان عن طريق التفكير فى صنع الله .

٤ — أبواب الإدراك

فى عام ١٩٧٩ فكرنا أن نقيم لقاءاتنا الشهرية فى بيوت الأصدقاء ، بهدف أن نستأنس بكل منهم فى بيتهم مع عملهم وجوهم الذى ينعشنا باستمرار ؛ حيث نرى صورة متجددة لفكرة الفن والحياة .

● ملخص فكرة الفن والحياة هى أن
الحياة لا تحلو إلا إن كانت فنا

والفن لا يستقيم إلا أن يكون حياة
والهدف أن يشعر كل إنسان أنه فنان
وأن يشعر كل فنان بمسئوليته تجاه الحياة .

وهذا فكر هذا البلد الذى يعتبر رائدا فى الفن والحياة من قبل أن يبدأ التاريخ وإلى عهد قريب ؛ بمعنى أن الفن فى مصر لم يوجد فى برج عاجى أبدا ، ولا كان نشاطا مستقلا عن أنشطة الحياة ، فلم تكن توجد نوعية معينة من النشاط إسمها فن فى جانب وباقى الحياة فى جانب آخر ، إنما كانا سويا ، بمعنى أن الفن حياة والحياة فن ، كما

نستهدف مرة ثانية أن يعودا . ونحن ننتهز كل فرصة لنذاكر هذا سويا .

- والطفل عندنا مناط الأمل : فأى أمل للبشرية فى المستقبل لابد أن يبدأ بالطفل . . . وأى أمل لايبدأ بالطفل يتزعزع بقدر بعده عن مرحلة الطفولة . كلما وضع الأساس فى الطفولة كلما كان أساساً متينا .

ودعونا نلاحظ من حياتنا الخاصة . . ومن الحيوات التى نلاحظها :

نجد أن القيم التى نشئنا عليها فى الصغر ، كا لدين مثلا ، تكون قوية جدا ، لدرجة أن يصبح الإنسان ـ فى وقت من الأوقات ـ إما ثائرا بحماس على ذلك الدين ، وإما متحمسا لدرجة التعصب . لأن تشرب الفكر الدينى يكون فى مرحلة الطفولة . وكيفية تشرب ذلك الفكر الدينى يشكل فيما بعد كيفية الحياة .

- إن الإنسان كإنسان يمتاز عن سائر الكائنات كالحيوانات والنباتات ، بالوعى . . وبالتاريخ . . وبالتربية .

والتاريخ عبارة عن وعى بالماضى ، لكى يكون هناك مستقبل أفضل . أى أن الوعى بالماضى ليس لمجرد استيعابه فى ذاته ، إنما لكى يمكن بناء المستقبل الأفضل : أى أن يكون أطفالنا آدميين أسعد حالا وأكثر فضلا .

أما التربية فهى تزويد الأجيال الجديدة بحصاد التاريخ ، ثم إشعارهم بمسئوليتهم ؛ فكما زرع الأقدمون لنا ولهم ، عليهم أن يزرعوا

للأجيال القادمة من بعدهم . وهكذا تستمر حلقات الأجيال فى نماء من حيث القيمة والمعنى . والمفروض أننا نستفيد من الخبرات التى نعيش بها اليوم ؛ نؤكد وننمى الجيد منها ، ونحاول أن نتخلص من القاصر والسىء فيها .

- ومن أكثر الظواهر التى نلاحظها ـ ليس فى مصر فقط بل فى العالم أجمع ـ أنه قد بدأت حرب فى نفوس الشباب ـ بعدما توقفت الحرب العالمية الثانية ـ حرب بين الشاب ونفسه ، وبينه وبين المجتمع ، وبينه وبين كل شىء . وأظن أن هذه الظاهرة لازالت مستمرة .

وهنا لايجدى السب شيئا . إنما علينا أن نفهم ونعرف السبب الذى من أجله تثور هذه الآمال الكبيرة . . فالشباب هو مرحلة الأمل . الطفل مناط الأمل . .

أما الشاب فإنه يعد ليكون ـ فى فترته هذه أكثر مثالية ؛ أى أكثر إيمانا بالآمال .

- لماذا يبتئس شباب البشرية فى هذا العصر ، أو فى هذا النصف الثانى من القرن العشرين ، ويثور على نفسه وعلى المجتمع ؟
لا أدعى أن عندى التحليل الشامل .
ولكن أظن أن المسألة لاتحتاج شمولا ، فالظاهر فيها يكفى :
وهذا الظاهر هو أن الشباب شاهد عملية تخريب على قدر خطير فى الحرب العالمية الثانية وقنابلها الذرية التى اختتمت بها والتى أصبحت تبدو الحرب العالمية

الأولى بجوارها كما لو كانت تجربة صغيرة ، بينما الحرب العالمية الثالثة تهدد الكل ، ويبدو أنها أيضا ستجعل الحرب الثانية تبدو حربا متواضعة فى التخريب

حين يشعر الشباب أن الكبار المتحضرين ـ على مستوى الأمم ـ غير قادرين أن يصطلحوا مع بعضهم البعض ، وغير قادرين على التعايش فى سلام ووئام ليجعلوا البشرية أسعد حالا رغم تقدمهم العلمى ، بل لعلى أقول بفضل تقدمهم العلمى ، حين يشعر الشباب بهذا ينتابهم يأس شديد .

- أقول نحن فشلنا ـ نحن الجيل المسئول أو المفروض أنه المسئول عن هذا الشباب ـ فشلنا فى إعداده الإعداد الصحيح كما فشلنا فى أن نحل مشكل تعايش البشرية مع نفسها المعيشة السعيدة الآمنة .

أن العالم ليس فقيرا . ولو أن ما يصرف على أدوات التدمير والحروب يصرف على البناء وإسعاد الناس لما وجد محتاج فى العالم نحن المسئولون لأننا لم نعط الشباب ـ عن طريق المثال ـ الأسلوب الصحيح فى كيف يمكن أن تكون الحياة . وفى نفس الوقت فنحن أنفسنا لم نقصد هذا الإيذاء فلا أحد يخطىء عمدا كما يقول « سقراط » إنما هو يخطىء لأنه لا يعرف كيف يصيب .

- من أين يأتى الخطأ ؟ الخطأ الذى وقعنا فيه بجهلنا والذى أورثناه لفلذات أكبادنا ؟

نقول إن فشلنا يعزى إلى فشل فن الحياة الذى كنا نمارسه حتى الآن .

فهل من الممكن أن نعطى الأطفال مبادىء فن حياة يجعلهم أسعد حالا منا ؟
هذا هو السؤال الذى نحاول الإجابة عنه عام ١٩٧٩ فى أحاديثنا . فى الحقيقة إننا نحاول منذ عام ١٩٦٩ أو قبل ذلك أن نلمس نفس الموضوع تحت عنوان « إعادة بناء الشخصية المصرية » فمنذ زمن ونحن نقول إن هذا أساسى :

كانت فكرتنا الأولى أن البشرية اليوم فى شقها المتقدم ـ وليس المتخلف فالمتخلف قد يكون أسعد حالا ليس من الناحية العلمية ولا من ناحية الثروة ولكن من ناحية المعنويات حيث لديه ايمان بمعنوياته ـ البشرية فى شقها المتقدم فقدت الثقة فى هذه المعنويات ولم تجد معنويات بديلة . . صحيح أن فى حياتها علماً أكثر وقوة أكثر وثروة أكثر ولكن فيها سعادة أقل وإيمان ضعيف إن وجد .
هنا نقول اننا إذا تركنا العملية تستمر كما هى ولم نقف أمامها وقفة متبصرة سنصل إلى نتيجة أسوأ لأن الإنسان يزداد قوة وثروة والمسائل تتعقد أمامه أكثر وأكثر .

- **فهل الإيمان ضرورة ؟**

هذا ما طلبت من أساتذة الدراسات النفسية أن يبحثوا فيه فى حديث لى معهم منذ بضعة سنوات ؛ طلبت منهم أن يؤكدوا هذه الحقيقة

الهامة وهى : أن الإيمان أساسى .
وأن الإنسان إذا انحلت عروة إيمانه فلا مستقبل لحياته ولا لسعادته ولا للبشرية . وأن هذه حقيقة نفسية عليهم أن يبحثوا فيها ويمحصوها .

لم أكن اتكلم عن الإيمان بدين معين . بل عن إيمان الإنسان . وقلت إنه ضرورة نفسية للإنسان . وأننا إذا انصرفنا عنها ولم نجعلها حجر الزاوية فى تنشئة الإنسان الجديد فإننا بذلك نطعن أبناءنا فى صميم حياتهم .

يقول حفنى ناصف فى شعره ما معناه أنه إذا ورث الجهال أبناءهم غنى وجاها فما أشقى بنى الحكماء . وأنا لا أعترف بمعنى هذا الشعر لأن ظاهره فيه مفارقات . . ونحن قد نحب المفارقة لما يبدو فيها من « شطارة » ولكنها ـ فى الحقيقة ـ خطأ ؛ لأن الحكيم لا يكون حكيما إلا إذا ورث أبناءه الحكمة فى الحياة : والحكمة إذا لم تؤد إلى سعادة الإنسان فهى ليست حكمة إنما هى حلم أو هوس أو خرف .

إنما الحكمة الحقيقية فى الحياة لابد أن
تكون خطوة نحو خير وسعادة الانسان بحق

فهل الجاه والمال هى كل شىء ؟ ! لا طبعا .
المال والجاه مهمان ، ولكنا على أن يوجه المال التوجيه الحسن ، ويوزن الجاه الوزن الصدق.. إنما جاه فارغ أو مال يستخدم للإفساد فليسا بسعادة .

لذلك أقول
إذا نظرنا إلى حكمة البشرية فى ضوء النظرة التاريخية الشاملة نجد أن الحقيقة السيكلوجية تقول إنه لا يمكن أن يسعد الإنسان ويستقر بلا إيمان .

ولقد فرطنا فى الأجيال الماضية لأنه بعد مازال الإيمان القديم التقليدى فى البلاد المتقدمة لم يقدموا إيمانا جديدا بديلا عنه .
إن صورة الإنسان التى يقدمها لنا علم النفس تنقصها نقطة الارتكاز الأساسية وهى نقطة الإيمان ..
فعالم من رواد العلم مثلا كفرويد وهو من رواد علم النفس الكبار كان يندد بإيمان البشرية باعتباره وهما .
وهذه ليست حكمة بل جهالة .

● لا يمكن أن نضع الغفلة مكان الإيمان الحقيقى .
ولست أدعو الناس أن تصبح فى غفلة لتعيش سعيدة وإن قالوا « وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم » فهذا أيضا نوع من الخطأ الخطر التى كنا ندرسها لأنها تعطى الناس فكرا خرافيا عن الحياة .. فإذا كان لدى الإنسان عقل حقيقى فى النعيم الحقيقى فليس من المعقول أن يشقى كما جاء فى باقى الشعر « وذو العقل يشقى فى النعيم بعقله » .
فى تقديرى أن الجاهل لا يمكن أن يكون متنعما ولا العاقل شقيا ..
فهذا تفكير سطحى نبلعه فى المحفوظات التى تعطى لنا .

● الإيمان الحقيقى لابد أن يبنى على يقين حقيقى . . يقين ذاتى ؛ لأن الإيمان إذا لم يكن قويا يصبح كالبناء على أساس ضعيف غير متين .
ونحن نريد أن نعطى الطفل حكمة الحياة المبنية على الصدق . . على الممارسة الذاتية . . على اليقين . . على الرؤية المباشرة . . على القلب الذى مارس فعلا موضوع هذا الإيمان .
هذا هو النور الذى يجب أن نعطيه لأولادنا ليسيروا فى هديه فى الحياة .
هذا النور . . هذا الإيمان يدعو إليه العلم الحديث فخر العصر .
ليس صحيحا أن العلم يكذب الدين .
ويبدو الأمر أن الديانات الكبيرة والإيمانات المعتبرة تحوم حول بؤرة واحدة معينة فيها ـ بشكل أو بآخر نقطة ارتكاز إيمان البشرية .

● وحيث أن الإيمان هو النور الذى يستضىء به الإنسان . . وأن هناك أساسا لهذا الإيمان يمكن أن تتعرف عليه الطبيعة البشرية معاينة أى مشاهدة قلبية حقيقية ، وأن هناك روادا أمكنهم أن يروا هذا . .
فهل من سبيل أن نمهد الطريق أمام الأجيال القادمة ابتداء من مرحلة الطفولة لكى يكون لديهم هذا الإيمان عن خبرة .
تربويا أقول إنه صعب : كما لو أردت أن تزرع النخلة وهى نخلة كبيرة أمر يبدو مستحيلا ، ولكن لو أدركنا أن الأصل كان مجرد نواة صغيرة لأدركنا ألا مستحيل . فإن الإنسان إذا أعد فى مرحلة الطفولة إعداداً واعيا صحيحا لأمكنه أن يعمل مستقبلا افضل فيما بعد .
فقضيتنا هى أن نعطى الطفل الأسباب المتينة التى تزيد إيمانه بالحياة

كلما نما . وهذه القضية ليست ممكنة فحسب بل هى واجبة لأنها لو لم تتم لوجد لدينا شباب كلما نما كلما ازدادت حياته زعزعة .

إن التقدم العلمى يساعد على تأكيد ، وتعميق الخبرة المباشرة للإنسان بأ هناك لهذه الحياةأصولاً وجذوراً وقيماً تمت كلها فى النهاية إلى أصل واحد . وأنى كإنسان مرتبط بهذا الأصل ارتباطا إذا أكدته أصبحت مؤمنا وإذا أهملته أصبحت تائها

سمعنا أخيرا أنهم اكتشفوا فى أمريكا مجرة جديدة تعتبر مجرتنا بجوارها كحارة وسط مدينة كبيرة .

وكلما أمكن للإنسان أن يرى أكثر فى هذه الحياة كلما وجد أن الحياة أروع وأكبر وأعظم إلا أنها ـ مع هذه الروعة وذلك الكبر وتلك العظمة ـ وحده .

فرغم هذه العظمة اللانهائية والكثرة من وراء الخيال إلاّ أنها فى النهاية تمت لأصل واحد .

وكذلك أنا أيضا : أنا الإنسان مهما تعددت أهوائى ونزعاتى واتجاهاتى النفسية ، فأنا لى صميم ، وحياتى لا تستقيم إلا إذا توافق صميمي مع صميم الحياة . . وهذا هو ركيزة الإيمان .

● فإذا نجحنا فى دعوة الطفل ليسير على طريق هذا التوافق فإننا نساعده على طريق الإيمان . . نساعده على طريق الهداية . . نساعده على طريق السعادة فى حياته .

وكنت قد رشحت بعض الكتب المترجمة إلى العربية للمساعدة فى تلك الرحلة ورأيى فى الكتاب دائما أنه أداة تفكر بها ..
الكتاب ليس كمية من المعلومات تبتلعها ..
الكتاب دعوة إلى رحلة فى عالم الفكر .. تسير معه .. تريد ـ أولا ـ أن تعرف إلى أين سيصل بك . ولكن ، إياك أن تذهب معه مكان ما يريد هو فقط بل أن تذهب بعقلك أنت وبقلبك أنت وبإيمانك أنت .

شكرا له فقد اقترح عليك الرحلة ، حتى لو اكتشفت فى النهاية أنه مخطىء فأنت الرابح .
فكتاب « العلم يدعو للإيمان » مثلا وهو أحد الكتب التى اقترحتها يكشف أن كل صغيرة وكبيرة فى خصوصيات هذا الكوكب ليست عبثا بل كلها أعدت بتصميم وبحكمة من وراء العقل . ولا يوجد شىء هامد فيها لافينا ولا من حولنا بل هناك حركة دائبة وطاقات من وراء الخيال : ملايين الخلايا تعمل داخلى وبداخلها بلايين الذرات وداخلها أكوان أخرى ونظام عجيب .. وكلها تعمل فى تناسق مما لا يمكن معه أن يكون اعتباطيا أو عشوائيا .
وحين يصل الإنسان لأن يشعر أنه جزء من هذا النظام العجيب فهو معذور إذا شعر برجفة .. فقد أدرك وحدة هذه الحياة واقترب من سرها ومصدرها ، فانجذب انجذابا طبيعيا لهذا الكمال .

أراد استاذى « إميديه أوزانفان » أن يدلل لنا مرة عن معنى الكمال فتكلم عن البيضة وكيف أننا نصدم حين تقع هذه البيضة وتتكسر

وعلل هذا بأن البيضة مثال لشكل يرمز إلى معنى من معانى الكمال ، وحين تتكسر ، شيء ما فى قلب الإنسان يتكسر ، أو يشعر كما لو أن جريمة قد حدثت ذلك لأن شيئا ما بداخلنا يهوى المعنى الأكمل .

وكان يعلمنا : إذا ذهبت إلى متحف خذ معك بيضة لكى تزن بها الأعمال فهى بتأملها ترفعك لمستوى معين من الكمال النفسى فإذا تأملت الصورة التى أمامك بعد ذلك انتظر ، فإذا رفعتك إلى مستوى أعلى فهى صورة رائعة فنيا . . وإذا حفظتك فى نفس المستوى فهى عمل جيد ، أما إذا هبطت بك فتأمل البيضة واترك الصورة » .

من هنا يمكننا أن ندخل لسيكلوجية الطفل والإنسان من هذا المدخل : مدخل عشق الكمال . فكلنا نحب الكمال بشكل أو بآخر .

وأذكر بهذه المناسبة « مايكل أنجلو » بعد أربع سنوات من العمل المتواصل على « سقالة » يرسم سقف كنيسة السستين والكل منبهر بما أبدع لدرجة أن « جيته » كان يفتخر لانتسابه إلى البشر لأن « مايكل أنجلو » من البشر . . أما « مايكل أنجلو » نفسه فقد قال بعد ما أتم العمل « لو طلب منى أن أعمل هذا العمل مرة ثانية لعملته أحسن :

هذه هى النفس الحية التى تسعى إلى النور كالنبات . . بمعنى أن هناك دائما الرغبة فى السمو والتسامى . . الرغبة فى عشق الأكمل .

● فإذا شجعنا فى نفس الطفل بذرة البحث عن هذا الكمال ، وأمكننا أن

ننمى أسباب هذا ، فنحن نعد هذا الناشىء لكى يصبح مؤمنا على أساس من الخبرة الذاتية .

ويقول كتاب «العلم يدعو للإيمان» أن الفلاسفة والعلماء كانوا قد حاولوا فى وقت من الأوقات أن يكتبوا كتبا تدعم أسباب الإيمان . ولكن حدث بعد «الداروينية» انهم انصرفوا عن هذا ومنهم مثلا «جوليان هكسلى» الذى كتب كتاب «الإنسان يقف وحده» Man stands aloneh والعنوان الانجليزى لكتاب العلم يدعو للايمان «الإنسان لايقف وحده»

● و«لجوليان» أخ هو «ألدس هلكسلى» وله اتجاه آخر أما «جوليان» فهو عالم بيولوجى ممتاز من الذين لديهم القدرة أن يضيفوا لمادة البيولوجى . وله اهتمامات اجتماعية واسعة . وأما «ألدس» فهو يجمع بين العالم والروائى والداعى إلى تدعيم الايمان وإياكم أن تظنو أن الروائى غرضه أن يسلى الناس برواياته فهو حينئذ لن يكون عالما ولا روائيا كبيرا .
إن اساتذة علم النفس الكبار يستشهدون لإثبات بعض نظرياتهم عن اعماق النفس البشرية وعن طبيعة الإنسان بكتابات كتاب كبار من أمثال «دستويسكى» و«شكسبير» . لأن مثل هؤلاء خبراء فى الطبيعة البشرية .
ان الروائى الكبير والمسرحى الكبير لا يكتب للتسلية والترويح عن النفس إنما هو يحاول أن يشرح الطبيعة البشرية فلديه بصيره فى سبرغور هذه الطبيعة ؛ والقدرة على شرحها وجلائها للناس بطريقة قد يعجز عنها المتن العلمى ؛ لأن المتن العلمى يتقيد

بشكليات معينة . أما الطبيعة الإنسانية ففيها دائما خصوصية الإنسان التى نسميها شخصيته ، وهو معامل ليس من الصواب إهماله وليس من السهل على العلم التـواصل معـه فالـروائى العظيم خبير نفسى كبير يعطى الحقيقـة النفسية مـع معامـل الشخصية الفردية . ويعطى رؤ ية داخلية فى الطبيعة البشرية ، بمعنى أنه يشركنا فى إدراك سر الـطبيعة البشـرية من النـاحية النفسية .

أخلص من هذا لأقول أننا حين نحـاول أن نعرف شيئـا عن طبيعة النفس البشرية فإننا لا نعرفها بالضرورة من العلم فقط بل من العلم ، ومن الأدب ، بل ومن الاسطورة فمن الأساطير مـا يعتبـر بيـانـات عن سـر النفس الإنسـانيــة ، ومن الفن التشكيلى ، أو فن الموسيقى فـأنت تعرف كثيـرا عن الطبيعـة البشرية حين تسمع « موزار » أو « بيتهوفن » فكل هذه شيات من النفس الإنسانية أصبحت مرئية مرأى القلب .

● **فلكى اعرف شيئا عن الإنسان لابد أن أعرفه عن طريق هذه المسالك المتعددة . وقد كانت هذه النقطة خلف ما نريد أن نقوله عن كيف ينبغى لنا أن نعد الطفل من البداية لكى يصل للمعرفة عن طريق مسالك متعددة وليس عن طريق واحد ؟**

أى ينبغى علينا أن نعلّم الأطفال ليس فقط من الكتاب وليس فقط عن طريق الذهن بل نحن نحتاج لكل انشطة الإنسان من علم ودين وفلسفة واسطورة وأدب وموسيقى وألعاب وحتى النكات فكثيرا

ما نعرف عن الشعوب من نوعيه نكاتها . وأن نراعى هذا فى طريقه التنشئة ذاتها .

فكيف نراعى ذلك فى طريقة التنشئة ذاتها .؟

الجواب بسيط . بالممارسة وليس بالنظرية فقط . كيف ؟

• أرجع لخبرتى الذاتية .

فى عام ١٩٤٢ دعيت لإلقاء ثلاث محاضرات فى مدرسة الفنون الجميلة العليا ــ كان هذا هو إسمها فى ذلك الوقت ــ عن الفن من خبرتى ، وكنت عائدا من الخارج منذ سنوات ثلاث .. وكنت قد بدأت أحاول فحص مجموعة الخبرات التى وصلت لها قبل ذلك .. ووجدت شيئا غريبا . « إنى أتكلم كفنان » .

وجدت أن معارف الإنسان فى الطبيعة ، وفى الكون ــ كما تجلت فى النشاط الفنى التشكيلى ــ قليلة جدا :

قد يبدو هذا الكلام غريبا بعض الشىء ولكنه الواقع :

فإذا تأملنا الفن الأوروبى بعامة بدأ بالإغريق حتى النهضة وما بعدها حتى التأثيرية ، نجد أن خبرته بالطبيعة محدودة جدا وفن أوروبا الحديثة لا يعبأ بالطبيعة .

أما الفن الصينى ــ وهى أكبر حضارة اعتنت بالطبيعة الخارجية ــ فالطبيعة التى اهتم بها ــ على غناها من جبال وأنهار وطيور وحيوانات واشياء من هذا القبيل ــ أيضا محدودة فإذا ذهبنا للفن الهندى نجدها أقل

وكذلك عندنا فى مصر قليلة أيضا .
كانت هذه الحقيقة عجيبة بالنسبة لى ؛
كيف أن الإنسان ـ المفروض أنه الواعى وسط المخلوقات التى نعرفها فى هذا الكون ـ لا يهتم بهذه الناحية ؟
أنا لا أتكلم عن العلم ؛ لأن العلم استمر مدة طويلة قبل العصر الحديث واهتمامه بالطبيعة قليل .
ولكن من حسنات العصر الحديث فى هذا الجانب أن العلم بدأ يهتم بالطبيعة . بل بدأ يسبق الفن فى ذلك .
ولكن هناك أشياء كثيرة فى الطبيعة ، يعلم العلماء أنهم لا يعلمون عنها شيئا . وكلما امتاز العالم كلما أدرك أكثر ، معنى « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

- وكنا قلنا بأهمية أن يعد الطفل من بدايته لكى يتأمل الطبيعة ، أى أن نحقق أمل الديانة فى الانسان .إن الله خلق كل ما فى السماوات والأرض وما بينهما بحساب وبقدر وبحكمة . وطلب منا أن نتفكر فيها .

- فى الأحاديث التى ألقيتها فى مدرسة الفنون الجميلة بينت أننا لم نعرف حتى الآن كيف نتعرف على الطبيعة ! لأن التعرف على الطبيعة ، أو على جسم واحد من أجسام الطبيعة يتطلب ليس فقط أن أعرف تاريخ العلم فيما يمت لهذا الجسم بصلة بل إنى قد أحتاج لقصص الأدباء وللأساطير وسير الأبطال والقديسين لكى أعرف كيف

أرى قطعة واحدة من خلق الطبيعة .
قلت إنى لكى أتأمل شجرة .. أو جمجمة ..
لكى ينشرح صدرى لها ..
لا يكفينى أن أرى بعينى وأن أقيس وأنظر بنظارة مكبرة .. إنما علىّ أن أفتح كل أبواب إدراكى مستعينا بكل الخبرات التى يمكننى أن أحصل عليها كأنوار كاشفة لتكشف لى حقيقة هذا الجسم الذى أتأمله ، ومع ذلك يظل هناك دائما جديد يمكننى أن أراه ومن الممكن أن يتكشف لى .

لذلك قلنا إن الطبيعة ليست ثابتة أو جامدة أو محدودة .. إنما أنت تستكشفها باستمرار وكلما تعرف أكثر كلما تكشف لك منها أكثر وأكثر وأنك تحتاج ـ لكى تتصادق معها صداقة حميمة ـ الموسيقى والأدب والأسطورة وشتى أبواب الادراك .
إن الفنان فى مرسمه تجده فجأه وقد قفز إلى مكتبته ليلتقط كتابا معينا يقرأ فيه بابا معينا .. أو إلى مسجله فأداره ليسمع قطعة من الموسيقى معينة يحس أنها هى هذه التى ستقربه لما يتأمل فيه ويكون بمساعدتها أكثر فهما لمعانيه. لماذا ؟

لأن كل جسم من أجسام الطبيعة
عبارة عن صورة من صور الوجود
والوجود يتجلى فى صور متعددة واصداء متجاوبة
ونحن البشر بكل مواهبنا لازلنا نحاول
أن نستكشف كنهه . لذلك نحتاج

لكل هذه الاجتهادات . ولا آخر لهذا السعى .
وأريد للناشىء أن يمارس هذا من البداية . كيف نحقق هذا ؟

● تذكرون ــ حين أردنا عمل تجربة فى هذا الصدد على مقياس كبير ــ فى السنوات الأخيرة أن أخذنا موضوع الطيور كمثال :
تكلمنا عن الطيور من ناحية العلم مرة . . ومرة أخرى من ناحية الفن . . ومرة من ناحية الشعر . . ومرة تكلمنا من ناحية الأسطورة . وفى كل مرة كانت الطيور هى الموضوع الرئيسى .
كما كنا من قبل ذلك بسنوات قد تناولنا موضوع النور :
كنا ندرس طبيعة النور . . وكيف أنه عبارة عن موجات من نوع معين . وأن النور والمادة توأمان ؛ بمعنى أن المادة نور متجسد . . طاقة متجسدة . والنور صورة من صور الطاقة .
ثم قلنا أنه لكى نعرف أكثر عن النور نذهب للعمارة الإسلامية ونجوس خلالها فندرك شياتا من معنى النور تكشفها لنا تلك العمارة . وكذلك العمارة القوطية . . والبيزنطية وندرك أن النور هنا غيره هناك . والعمارة المصرية القديمة . . والإناء المرمرى الشفاف . . والزجاج الملون ، وفنون كثيرة أخرى تساعدنا على التواصل والتصادق مع النور .

● ما أريد قوله هو أنه إن كان الموضوع الطيور أو النور أو أى موضوع آخر ، فلكى يتقرب انسان القرب الحميم يحتاج لمسالك متعددة ولا يقتصر على مسلك واحد .
لذلك قلنا فى كتاب « الفن وإعادة بناء الشخصية المصرية » فى

الفصل الخاص بالطفل أن تدعيم وعيه بالحياة هو بيت القصيد ، وأن هذا الأمر لا يتم إلا عن طريق دعوة عامة للكل ، يسهم فيها الكل ؛ كل من زاوية اختصاصه ، لكى يلقى الضوء الذى يقدر عليه ، ليكشف معنى الحياة .

لأن محور الفكر الأساسى الذى أدعو إليه فى ثقافة الطفل هو أن أثرى وعيه بالحياة إثراء حميما وقويا وغير قانع بالقليل ، بل ينشد الكمال بهذا الوعى . عن طريق التعاطف مع الحياة يوجد الأساس المتين للوعى الدينى أو للإيمان الصحيح المدعم بالخبرة الذاتية .

٥ — البصر البصير

إن قضية الطفل تخص كل الناس ! تخص الطب والصحة . . تخص الاقتصاد . . تخص التعليم . . تخص كل ناحية تهم الإنسان ولها جانب يمت إلى مستقبل الطفل .

لذلك نريد ــ من زاويتنا ، زاوية أصدقاء الفن والحياة ــ أن نقول كلمة تعتبر اجتهادا منا فى موضوع عام الطفل وما يمكن أن يمت إلى سعادة الطفل فى المستقل .

- بدأنا بالتنبيه إلى نقطة أساسية وبسيطة :

هى أنه فى إعداد الطفل لحياته المستقبلة عندما يصل إلى الشباب ثم النضج فالشيخوخة قد ينقصها فيتامين من أهم الفيتامينات المعنوية التى لا تتم الصحة لحياتنا بغيرها هو عنصر الاستنارة برؤية تضىء معنى الحياة.

أى أن من يصل لسن الشباب أو الشيخوخة ولا يرى فى الحياة ما يدعو للحياة فهو قطعا إنسان بائس وكأنه محكوم عليه بسجن مؤبد ، لأنه فعلا مسجون داخل هذا اليأس المطبق عليه . فإذا أردنا للإنسان وضعا غير هذا الوضع فعلينا أن نضىء له ما يمكن أن يضىء بدوره له

الحياة فيما بعد بحيث لا تبعث على اليأس أو اللامعنى أو العبث بل تبدو على جانب من جوانب حقيقتها المضيئه . الأمر الذى يملأ حياته بالمعنى فيقبل على العمل بنفس مفتوحة وقلبْ منشرح . وقلنا أن هذه العملية لا يصح أن نتركها للصدفة بل لابد أن يعد لها بتخطيط المربين الواعين .

- ثم قلنا إن عصرنا يمتاز بين العصور بأنه عصر العلم والتكنولوجيا ، التى تأتى فى المرتبة الثانية بعد العلم لأنها إبنته ونتيجة له . والمهم فى العلم هو الأسلوب العلمى أو المنهاج العلمى أو طريقة التفكير العلمى أو ما نسميه الموضوعية فى التفكير الذى يتطلب التمحيص عن طريق التجربة . وكلها مسميات لأسلوب فى التفكير يعتبر عصرنا صاحب الإضافة فيه ، ليس بمعنى أن العصور السابقة لم يكن لديها منه شىء إطلاقا ، بل كان لديها ولكنه وصل النضج والتحقيق على مقياس كبير وجرِّب وجاء بنتائج كثيرة فى العصر الحاضر . والأسلوب العلمى هو مجابهة الواقع والاستعداد للتغير أمام محك التجربة . وهذا موقف نبيل وشجاع . وقليل من الناس من يقدر عليه ، لأن أساسه الاعتراف بالحق والرجوع إليه .

وإذا كان لدينا أسلوب علمى حقيقى فسنصل إلى العلم وبالتالى إلى التكنولوجيا : لأننا إذا اقتصرنا على نقل التكنولوجيا وحدها فستنتهى بعد مدة وتتغير .

وإذا نقلنا العلم وحده فالعلم يتقدم باستمرار . أما إذا كان لدينا أسلوب علمى فسنضمن التجدد والانتقال من شىء أقرب إلى الحقيقة

إلى شيء أشد قربا منها ، ويمكننا الاستمرار إلى ما شاء الله .

- فإذا كنا نرسل بعثاتا ، ونستدعى خبراء ، ونستورد كتبا ، ونترجم كتبا ، ونتفتح على فكر العالم ، فلابد أن يكون واضحا أن النقطة الأساسية هي أن الأسلوب العلمي في التفكير الذى يعتبر ميزة هذا العصر وعطاءه ، علينا أن نحاول أن نجعله أسلوبنا في الحياة نفسها حتى عندما أكون فنانا ، أو رجل دين أو رجل سياسة ، أو رجل اجتماع يكون لدى الأسلوب العلمي الذى أساسه التمسك بالحقيقة ومجابهتها والاستعداد لتطوير فكرى بحيث يوائم ويلائم الواقع والحقيقة كما تثبته التجربة أمامى ، أمحص ولا آخذ أى شيء كقضية مسلم بها وانتهى الأمر .

ومع ذلك فإن هذا العلم نفسه بمعناه الكبير مبنى على عقيدة لا منطقية بل إيمانية : كأن أقول مثلا « إن الإنسان يحب الخير » فإن هذا ليس منطقيا بمعنى أنه من الجائز أن يكون الخير ضد مصلحتي ومصلحة عائلتى إذا كانت مصلحتنا شريرة كأن أكون قد ولدت في عصابة مثلا والدول المعتدية عصابات منظمة ولكن إذا كانت فطرتى سليمة سوية فلابد أن أكون ضد إغتصاب هذه العصابة لحق الآخرين. لأننا نقول أن الفطرة السوية للإنسان تجعله يحب الخير ويحب الجمال لأنه مفطور على ذلك كالنبات الذى يتجه نحو النور . . إن الله فطره على ذلك . .

فالعلم مبنى على عقيدة فطرية من هذا النوع

وهى التى تقول إن هذا الكون ليس عبثا
وأن الأشياء لا تتم حيثما اتفق بل
على سنة الله « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .
فالعلم هو البحث عن سنة الله فى خلقة
السنة التى إستن طبائع الأشياء عليها .
أى الفطرة الطبيعية . لذلك يسَمون
علم الطبيعة علم الفطرة
والإيمان بهذه السنة ليس له منطق
إنما هو إيمان فطرى كحب الإنسان للخير .

● فالعالِم لديه إيمان أنه إذا بحث سيجد قانونا يربط الظواهر المختلفة ، وحين يبدأ البحث يجد أنه يرتقى من قوانين جزئية إلى قوانين أكثر كلية إلى قوانين أكثر وأكثر كلية .

ويكشف أنه ــ فعلا ــ قد تم كل شىء بحساب وأن الشاهد على ذلك علميا يتلخص فى النهاية فى بعض قوانين رياضية ، ليس كل شىء طبعا ينتهى بقانون رياضى ولكن فى أشياء كثيرة وهذا يفسر معنى أن الله خلق كل شىء بقدر .

وحين وُجد عند الإنسان الأسلوب العلمى
وعززت النتائج رسوخ هذا الأسلوب
فقد أمكن للإنسان أن يصل إلى القمر مثلا

أو أن يتواصل مع أشياء بينه وبينها ملايين
السنين الضوئية . فقد أصبح له ــ عن طريق
فكره ــ سلطان لم يكن له من قبل

● فإدراك معنى الحياة الذى سيلتزم به القلب لم يعد فى إمكانه أن يأخذ الأمور بالسماع ، بمعنى أنى أنشأ كطفل فى عائلة من العائلات على دين معين وإيمان معين . وعن طريق التكرار أصبح هذا الإيمان إيمانى عن طريق التنشئة وبالسماع . ولكن حين يبدأ مثل هذا الطفل فى النمو ويصبح شابا ويتذوق مذاق العصر فإنه سوف يسأل عن الدليل على القضايا المختلفة التى أقنعته بها التنشئة سماعيا وجعلته يتعصب لها ــ والتعصب نفسه سيىء لأنه مبنى على منطق غير ممحص ــ إذن هنا يتعرض الإيمان لمحنة : أى لإمتحان مؤلم يهتز له كيان الإنسان ويصبح فى حالة من عدم الإستقرار ومعرض للآلام والأمراض النفسية .

إذن الإيمان ضرورة نفسية من
الناحية العلمية الصرف .

فما العمل ونحن نأخذ دياناتنا بطريق لا واعى وعن طريق التلقين والسماع ؟

هنا فصل لنقطة مهمة جدا هى :

حيث أن الإيمان ضرورة نفسية للإنسان ، فإننا نحب أن نسأل علماء النفس : ألا يكون إيمان الناس بالمقدس وفى الديانات المختلفة للبشرية وبصرف النظر عن نوعية هذا المقدس ، حقيقة

موضوعية ؟
ألا يمكننا ـ لو درسنا الطبيعة البشرية ـ أن نجد أن إرتباط الإنسان بهذا المقدس أمر أساسي ومحور من المحاور الأساسية للوجود ؟
أنا من المؤمنين بهذا .

● كيف جاء إيمانى بهذا مع العلم بأنى متمسك بالأسلوب العلمى ؟
جاء عن طريق التجربة :
فقد وجدت فى جميع منجزات الحضارات الكبيرة ـ التى كانت ملهمة بالديانات بصرف النظر عن ماهية هذه الديانات سواء كانت هندية أو صينية أو مصرية قديمة أو بابلية أو آشورية أو اسلامية أو مسيحية ـ أنها تعبر عن جوهر واحد نسميه المقدس .
هل يتضح كيف أن بحثى الفنى أوصلنى لأهمية الناحية الدينية ؟
إنى ـ عن طريق رؤيتى المتعمقة للفنون ـ وجدت كلمة أساسية تنطقها قمم هذه الفنون كلها وتشير إليها هى المقدس
إذن فقد وصلت عن طريق التجربة الممحصة ذاتيا والبحث المتعمق .

● سأنحى مؤقتا دور الفن فى تدعيم الإعتقاد بوجود المقدس وأعود للعلم .
هل من الممكن للعلم أن يساعد على الشعور بهذا المقدس وبأن الكون لم يخلق عبثا ؟ أقول طبعا فالرؤية العلمية ذاتها جزء من الرؤية الدينية . أما أن الكون لم يخلق عبثا فمن العجيب أنك حين تدرس

مزاج العلماء تجد أن بعضهم كان من حظه أن أثبت عن طريق العلم
أن الكون غير مخلوق عبثا ـ وبعضهم الآخر وهم على قدر كبير من
القيمة أيضا كان يقول إن هذا الكون لا شأن له بالإنسان وأن الإنسان
هذا مجرد مخلوق صدفة فى هذا الكون وأن الحياة نفسها صدفة . .
وأن الكون آلة تعمل بنظام معين كأى آلة . . وقد يكون لهم بعض
الحق بحكم كونهم علماء طبيعة ووظيفتهم أن يدرسوا ظواهر الطبيعة
لأنهم لو ذهبوا للأسباب الأولية فلن يكونوا علماء طبيعة بل علماء
ما وراء الطبيعة والفرق واضح فعلماء الطبيعة يبحثون عن السبب
المباشر . أما علماء ما وراء الطبيعة فيبحثون عن السبب الأول .

● **ولكن الإنسان ليس لديه تعطش للعلم فقط . بل لديه تعطش للدين أيضا وهو ما نسميه تعطش لإدراك السبب من وراء كل الأسباب والمعنى وراء كل المعانى . المعنى العلمى وحده غير كافى . لابد أن استشعر وجود ذلك الذى بينى وبينه ذلك الداعى إلى التقارب والتواصل ، كما يقال إن « العبد يشتاق إلى الله والله يشتاق للعبد » . و « من تقدم إلىّ شبرا تقدمت إليه ذراعا .**

● **ولكن ماذا يقف فى سبيل هذا التجاذب ؟**

الجهل . ليس الجهل العلمى . بل سأدعوه هنا الجهل الوجدانى .
فهل من الممكن للعلم حين يدرس الحياة أن يكشف حقا أن هناك
حكمة فى خلق الإنسان . وأن هذا الإنسان غير مستقل عن باقى
الكون وأن هناك وحدة تربطه بالكرة الأرضية وبالغلاف الجوى حولها

وأن كل هذا تم بحكمة مصممة بنوع من الدقة والكمال يعجز الذهن عن أن يحيط بكل دقائقها .

نهتم فى التنشئة الأولى للأطفال بالتوعية بهذا الإحكام فى الكون ونبدأ بأشياء صغيرة وننمو بها حتى يدرك الناشىء بالتدريج قضايا أكبر وأعمق ثم نسلمه زمام نفسه ليجتهد هو إلى ما شاء الله .

لذلك قلنا إن المسألة تحتاج إلى إعادة تنظيم للمواد العلمية والمناهج العلمية . أى أن نربط العلوم بعضها بالبعض بحيث يدرك الناشىء أن الماء والتراب والنبات والحيوان والإنسان والشمس والجو والليل والنهار وكل هذا مرتبط بعضه ببعض وليس معزولا عن بعضه . هكذا نقربه من إدراك حكمة فى الوجود ونبعده رويدا رويدا عن جاهلية عبثية الوجود .

● ثم قلنا أننا كفنانين ندرك حكمة الوجود عن طريق البصر البصير ؛ فهناك رؤية هى الرؤية الفنية تكشف للإنسان نوعا من البنيان الكونى يهتز له القلب السوى .

أما الرؤية العادية . . وأسميها الرؤية العامية فهى رؤية غير تأملية هى رؤية الإنسان فى الحياة الواقعية كما يمارسها أغلب الناس فى مختلف الأزمنة والأمكنة ، ويكون هدفهم حينئذ هدفا عمليا فحسب فمثلا يمر طفل بجوار شجرة توت أو بجوار نخلة فإذا به يريد أن يأكل توته أو بلحة ولا شأن له مطلقا بكيان الشجرة . هو لا يرى إلا منفعته العابرة ونحن كهذا الطفل . .

حين نمر مرا سريعا وسط الطبيعة والناس والأشياء من حولنا ولا نرى إلا أهدافنا العلمية المادية بالضبط كا لطفل الذى أراد أن يأكل التوتة أو البلحة حين رأى شجرة توت أو نخلة .
فالرؤية العامية محكومة بغرض المنفعة وهى رؤية عملية فى مداها وهدفها أما الرؤية الفنية فهى رؤية غير عملية ولا يتسم بها أغلب الناس إلا بعد معاناة :

الفنان يترك المنفعة جانبا لأن رؤيته تأملية أساسا . فهو يترك الإعتبارات المألوفة العرفية ؛ فقد ينحنى ليلتقط زلطة أثارت إنتباهه أو ورقة شجر جافة ملقاة على الأرض أو بعض عيدان النباتات البرية التى يقتلعها الفلاح لعدم جدواها للمحصول إقتصاديا بل قد تضره .. الفنان يتأمل سنة الله فى الخلق عن طريق البصر البصير . يريد أن يرى كيف بنيت هذه النبتة الصغيرة .. كيف نشأ ذلك البحر وارتفعت فيه الأمواج .. كيف علت من فوقه السماوات ..

الرؤية الفنية تلغى المصلحة الذاتية العابرة
وتتأمل تأملا موضوعيا لا شخصيا ..
بهدف التواصل مع الحقيقة الموضوعية البنائية للأشياء .

من هنا يصبح الفنان المنشرح الصدر لمثل هذه الرؤية قريبا جدا من الإيمان ، لأنه يرى عن طريق البصر البصير وأأكد على البصير ..

لأن بصر التأثيرية قليل النصيب فى البصيرة فهو يقف عند اللمحة العابرة . وهذه هى ميزته أن يشاهد اللحظة العابرة وينتقل من لحظة

للحظة التى بعدها ويهمه جدا التغيير السينما توغرافى للنور والإنعكاسات اللونية ، لأن كل لحظة يعرض فيها هذا التغيير شيئا جديدا . فإذا لم يكن متابعا بسرعة تفلت منه . لذلك هو يضحى بشىء من العمق فى سبيل ألا يفوته التغيير المستمر لظاهرة النور . لذلك له حظ من الصدق ولكن على حساب شىء من العمق .

لكن الفنان الذى سيعمل تمثال « أبو الهول » مثلا ويتأمل رأس « خفرع » الفرعون المفروض أنه طرح شبهه عليه . . ويتأمل الفم أو العين . . هو لا يهمه هنا فرعون إنما ما يهمه هو الكيفية التى بنى عليها الفم أو العين . . طبعا هو لا ينسى أنها شخصية فرعون ولكنه يرى فرعون حينئذ باعتبار شخصيته ، أى جوهر بصيرى أيضا . . أى عملية بصيرية . : أى بالرؤية المتغلغلة فى الواقع ليدرك كنهه وفى نفس الوقت يرى الكيفية المبنية عليها الطبيعة التى تعبر عن الرأس . . ونفس الشىء مع جسم السبع ليتم به عمل الخيال الخاص « أبو الهول » .

هذه الرؤية الفنية ملتصقة إلتصاقا شديدا
بالتعرف على الكيفية التى بنيت عليها الأشياء
لذلك فهى من أسباب تدعيم الوعى الدينى .

وخلصنا إلى أن النظرتين العملية والتأملية ضروريتان . فحين تقود عربة تحتاج النظرة العملية وحين تجلس تحت شجرة فى بستان فمن حقك أن تتأمل .

أما النظرة العلمية فلا شأن لها بالناحية الجمالية ولا الناحية المصلحية المباشرة : هى تبحث عن نوعية من العلاقات المعينة لتسجلها وترصد نوع النظام الموجود فيها عندما يحدث شىء معين .

ثم أشرنا إلى أهمية وجود أساليب أخرى غير النظرة العلمية والعملية والتأملية الفنية الموضوعية كا لفلسفية والشعرية والأسطورية والأدبية والتعبيرية أى كل جنبات الثقافة المختلفة . فلكل نظرة إضافة ممكن أن تضيفها لإثراء الكيان البشرى لأن الكيان البشرى يحوى كل هذه أبوابا للإدراك فإذا أردت أن تعرف الإنسان فجمّع مجموعة من كل المواهب البشرية لتأخذ فكرة عن الإنسان المكتمل « الغير متحقق » فكلنا كسور من الإنسان .

يقول « نيتشه » وهو ينتقد الأمثلة الممتازة من الناس أنه حين يرى موسيقيا ممتازا لا يجد إنسانا بل آذنا تسير على أرجل . كذلك يرى الفنان الممتاز عينين تسيران . والفيلسوف ذهنا يسير ـ وتساءل اين يرى إكتمال البشرية !

- إذا تكاملت إنسانيتنا سنجد أننا عبارة عن كون مختصر : أى ملخص للكون :

هو الكون الأصغر . . يسمون الإنسان الكون الأصغر وفيه إنطوى الكون الأكبر !

لماذا اهتز للجمال الموجود فى الوردة مثلا ؟

لأنى مفطور على ذلك .

لماذا أسعى وراء القانون العلمى ؟
لأنى مفطور على تفهم سنة الله فى الخلق :

أى هناك بينى وبين الكيفية التى صنعت عليها الأشياء نوع من التقارب والتجاذب لولاهما لما أمكننى أن أفهم القوانين العلمية . . التجاذب لكى إبحث عنه والتقارب بفضل المجانسة التى بدونها لم نكن لنعرف هذا القانون .

فالكون مضمر فى داخلى فى حالة الإختصار من ناحية القالب أى الصورة

ومن ناحية القلب . .
القلب وقد شرحته بقوانين الجمال والعلم والفلسفة والموسيقى والاسطورة الخ كلها لابد أن يكون بينى وبينها مواءمة وانجذاب .

أما القالب فيمكنك أن تعتبر أن فى كيانى العظام بمثابة الجبال . . والشرايين والأوردة هى الأنهار . . والنَفَس هو الجو الموجود . . ففىّ صورة من الكون مصغرة . ويقول الغزالى أنه يرى الكون كإنسان واحد مرتبطة أجزاؤه بعضها ببعض كأجزاء جسم الإنسان .

● ونحن ـ أصدقاء الفن والحياة ـ تهمنا التربية الفنية باعتبارها أنها هى التربية ، إلا أن أصحابها جعلوا منها اشغالا يدوية منظوراً وزخرفة .

بينما التربية الفنية جوهرها الأساسى هو التكامل
والفن على حقيقته هو كل عملية فيها تكامل وتشع قيمة

النظرية العلمية فيها فن وفيها جمال كجمال الكون .
والعالِم الرياضى الممتاز يرى فى النظرية الرياضية جمالا رياضيا كبيرا .

الكون كله وحدة متكاملة
وهو الفن الإلهى .

وأنت حين تعمل عملا كبيرا أنت تحاول أن تقدم مضاهيا لما أدركته من حكمة الكون .
والتربية فى حد ذاتها هى أنك تعمل من الإنسان نفسه عملا فنيا ، شخصية متكاملة . هدف التربية أن تجعل من الإنسان الجزء الإنسان الكل المتكامل والنوعية المتفردة التى يثرى بها البشر والبشرية .
أما أن نقدم التربية الفنية على أنها أشغال يدوية أو رسم وزخرفه فمن الطبيعى ألا تحترم . إن الناس يحترمونها بقدر احترامنا لها . وبقدر رؤيتنا لها نقدمها .

● **إذا إتفقنا على القضية فكيف نحقق هذا ؟**

نتكلم عن الطبيعة وسنة الله كما تبدو فى هذا الخلق الطبيعى ، والحكمة فيه إن كلمة الطبيعة فى حد ذاتها تشير إلى أسطورة ، فلا يوجد شىء موجود فى مكان ما إسمه طبيعة ولكنا نفترض وجود كينونة شاملة لكل هذه الكائنات . فلا يفترض أحد أن الطبيعة هى القمر أو الشمس أو أنها الجبل والنهر . . إنما هناك كيان شامل لكل هذه الموجودات الطبيعية النباتية والحيوانية والإنسانية نقول عنها الفطرة .

هذه الطبيعة أو الفطرة . . هذه الأسطورة . . هذا الكائن الأسطورى العجيب عبارة عن المرأة الكبيرة . . أم الكل التى تلد وتنمى وتربى كل الكائنات وفق سنة الله .

أى أن المصريين القدماء حين كانوا يعتبرون أن « هاتور » رمز الطبيعة هى الأم وهى المربية الحنون تتعهد بالرعاية والتنمية كل الكائنات ؛ تلدها وترعاها وتنميها حتى تمام نضجها وفق مبدأ الوجود ، اعتبروها رمز العنصر المؤنث

ومن هنا كان تقديرنا للمبدأ المؤنث ، وتقديرنا للطبيعة ، وتقديرنا للعملية الفنية الخلاقة التى ترعى بذرة الفكرة وتتعهدها بالتنمية حتى يشتد عودها وتعيش .

هذا كله منبعه واحد . فهل الرباط واضح ؟

● مثلا . نحن جلوس بين النخيل الآن . وجنين النخيل هو نواته التى تلدها الطبيعة ثم تنميها حتى تصبح تلك النخلة العالية التى تثمر .

فمبدأ الأنوثة . . الأمومة . . الولادة . . وتنمية البادرة الصغيرة حتى تصل النضج هو مبدأ الطبيعة .

ونريد أن يستمر الوعى بهذا ، وبوجود الوحدة التى تربط كل هذه الأمور بعضها بالبعض الآخر ، وبوجود القانون الذى هو النظام .

فهل يبدو هذا صعبا بالنسبة للطفل ؟

الأمر يتوقف على كل طفل . وعلى طريقة التربية . .

إن الطفل يعشق المحارات والأصداف والأحجار الجميلة ذات النظام الواضح ويمكن إتاحتها للأطفال ولفت أنظارهم مثلا لبعض التقابلات كا لواضحة بين ثنيات سعف النخيل الجاف هنا وبين النظام الواضح فى الأوانى المرمرية . . إن هذه التقابلات تثبت أن هناك نوعا من القانون يربط هذه بتلك من ناحية النظام والشكل .

بمثل هذه الرؤية والعلاقات يمكن التنبيه لوجود نظام شامل .

- **أما فى الرؤية الفنية فيمكننا أن نصل إلى أنه لا شىء فى الطبيعة إلا ويسلكه هذا النظام . أما حين يظهر عدم نظام يكون السبب نقص فى قدرة الرائى أكثر منه غياب فى نظام الطبيعة . إذا عودنا الناشىء على** أن يرى النظام فى الطبيعة وكيف ينمو فيه ، فإننا نضع له ركيزة من ركائز الإيمان التى شرحناها .

لذلك نقترح :

أن نقيم عرضا من أعمال مختارة من البيئة الطبيعية . ولدينا ولدى أى إنسان بعض الأمثلة لما يمكن أن يعرض بحيث يمكن لكل ناشىء أن يضيف لهذا العرض ما يجمعه بنفسه من الطبيعة ونحن نختار مما اختاره هو ، ويمكن أن يشارك فى هذا بعض الكبار . . والكليات الفنية أو العلمية المختلفة . . على أن نلتزم بعض الشىء بالأمثلة المحسوسة الملموسة .

فإذا أقمنا مثل هذا العرض فهل من الممكن أن يحد ؟ لايمكن . بل هو قابل أن يصبح لا آخر له .

ويمكن اقامته ومثله فى كل محافظة من محافظاتنا ليأخذ صورة مختلفة فى كل مكان حسب البيئة المقام فيها . . وبذلك ندعو للفكرة .

الفكرة هى أننا نريد تقديم صنع الله الذى أتقنِ كل شىء لأطفالنا وليروا بأعينهم مثالا للصنعة المحكمة والإحكام الممتاز والذوق العظيم للطبيعة . . وبمضى الوقت يمكن أن نضيف الصور والشرائح مما يساعد على رؤية وجود قانون واحد يشمل الكون كله .

٦ — العمل السوى

● يرى أصدقاء الفن والحياة أن إعداد الطفل لحياة سعيدة فى المستقبل لابد أن يبدأ من قبل ولادته .

ونحن نعلم أن الشعوب العريقة القديمة حينما كانت تهتم بوجوب وجود نوع من المواءمة بين الزوجين كانت فى الحقيقة تهتم بالنوع ؛ أى أن المجتمع كان يهتم بحفظ نوعه على مستوى معين من القيمة . من هنا كان إهتمام من له القوامه فى عملية الزواج بأن يكون هذا الزواج مبشرا بوجود طفل مولود ولادة حسنة ليكون فيما بعد إنسانا يحقق آمال ذلك المجتمع .

● ومع نمو الفردية فى العصر الحديث تركنا هذا اللون من التفكير جانبا وبدأنا نهتم أولا بموافقة الشاب والفتاه نفسيهما عن هذا الإرتباط ولا دخل لنا مادمنا لسنا نحن الذين سنتزوج كما يقولان . وهذا التفكير عرض لمرض دلالته أننا اليوم نفكر تفكيرا على المستوى المباشر والفردى .

ومن الجائز جدا أن تعجب الفتاة بالفتى أو العكس دون نظره لهل

ممكن لهذه العلاقة أن تعيش وتستمر وتقيم مجتمعا صغيرا يكون وحدة فى المجتمع الكبير سعيدا وموفقا ! ؟

● وهناك نظرة أخرى للموضوع هى تعقيم المحتمل أن ينجبوا أطفالا غير صالحين . ومثل هذا التفكير يذكرنا بما كان موجودا فى ألمانيا الهتلرية ، حيث ظاهر المنطق واضح ولكن حقيقة الأمر تقول إن التطبيق مشكوك فيه ، فالأمر يحتاج لإدراك علمى أدق وأحكم من المتاح

● الحقيقة أنى أذكر هذه النقاط بهدف أن المجتمع كمجتمع - وكل منا كجزء من هذا المجتمع - مسئول عن الطفل القادم ؛ إنسان المستقبل .

فالفرق بين الأمور كما تسير فى عالم البشر
وعالم الطبيعة هو أن للبشر وعيا يمكنهم من التدخل
فى ماجريات الأحوال لتحسين النوع وهو يدرس
هذا وفى يده جزء من مصيره ومصير البشرية

وهذا جزء من تكريم الله للإنسان ، وبالتالى جزء من المسئولية الواقعة علينا . وحين نلاحظ فى المجتمع من حولنا وجود أطفال أو كبار مخيبين لأملنا فى الإنسان فلابد أن نعرف أننا قد نكون المسئولين كمجتمع . فالمجتمع كما قلنا الى حد ما هو المسئول عن نوعية البشر فيه وكلما علا علوا معه .

● ويمكننا ـ على هذا الأساس ـ أن نقرر أن الشعب المصرى اليوم متروك لكى ينجب الشعب المصرى القادم بوعى قليل . وكلما حققنا أملنا فى وعى ثقافى أكبر أى بكيفية حدوث أكبر كلما أمكن لنوعية الشعب أن تتحسن اكثر .

● وتذكرون أننا حين نتكلم عن البيئة المصرية التى نعيش فيها فى وادى النيل نقول إنها ليست من صنع الطبيعة وحدها ، إنما هى من صنع الطبيعة مشكلة عن طريق الإنسان المصرى . وكلما ارتقى وعى هذا الإنسان كلما كانت طبيعة هذا الوادى أجمل وأروع وأبدع وحين يدرك الإنسان أن له عرشا عليه أن يتبوأه وعليه مسئولية لابد أن يضطلع بها ، يعرف شيئا من كيف أنه ظل الله على هذه الأرض .

● وحين كان الرئيس السادات يتكلم فى اجتماعه مع الأطباء عن نقطة أهمية الوعى الغذائى للأطفال شبه بحفيديه وأحفاد « كارتر » الرئيس الأمريكى الذين بدوا اكثر صحة وحيوية من حفيديه ووجد أن الفرق يكمن فى أن الوعى الغذائى لأحفاده غير موجود كما ينبغى وهنا تنكشف زاوية أخرى من الزوايا المفروض أن الإنسان مسئول عنها وأنه حين يتنبه لها يبلغ جانبا من الرشد .

وقد قلنا أنه فى أيدينا ـ إلى حد ما ـ أن نهيىء للإنسان فى مستقبل حياته نورا بين يديه يضيىء له طريقه فى الحياة لأن ماينقص التربية الحديثة المعاصرة هو تزويد الطفل من البداية برؤية لمعنى الحياة . . ومعنى الموت . . ومعنى الإنسان . . ومعنى الوجود . وطالبنا بحق

الطفل على المجتمع ألا يهمل فيه هذا الجانب وغيره من الجوانب المتاحة .

- وتساءلنا عما هو متاح فى هذا العصر ، فليس أى شىء ممكن فى أى عصر . ولكن ، فى كل عصر ، هناك أشياء إذا تركناها نكون نحن الخاسرين . كما نعرف أنه ليس فى أى يوم يمكن عمل أى شىء ، ولكن فى كل يوم من الممكن عمل شىء ، من الخسارة لو مر اليوم دون عمله ؛ فنحن الآن جلوس وسط الحقول ، ولكنا لا نعرف عنها ما يعرفه الفلاح ؛ فهو يعرف أن هناك عمليات معينة فى الزراعة لابد أن تتم فى وقتها وأوانها من السنة . . فإذا تمت قبل أو بعد هذا الميعاد فإن النتيجة ستكون محكومة بذلك التوقيت .

ولو وعى الإنسان فى حياته ـ باستمرار ـ أن الوقت مهم جدا ، وأن هناك أمورا لابد أن يعملها فى شبابه ليتفادى المعاناه حين يصل سن النضج ،وأموراً أخرى لابد من عملها فى سن النضج حتى لا يعانى فى شيخوخته . . لو وعى الإنسان هذا ، لتحقق خير كثير ، وسعادة أتم .

● ومن حظنا أن فى العصر أشياء ، من العبث أن نضيعها ونضرب الصفح عنها . . وأشياء أخرى تنقص العصر ، من العبث أن أستسلم لها . فإذا شبهت بالناحية الفنية فإنى أقول : إن العصر يركز فى ناحية الفنون التشكيلية على مشكلى الرمز والشكل تركيزا لم يسبقه تركيز مماثل ، علينا ألا نضيع فرصة الإنتفاع به .

وهناك أشياء أخرى العصر تائه عنها ، ومن الحصافة ألا أتمثل به ، بل أحمى نفسى منه ؛ كاستهتاره بالتراث . . فلم يوجد عصر من العصور استهتر بالتراث قدر هذا العصر . . وعلى مستوى العالم . . وعند أغلبية صغار الفنانين . أما كبارهم على المستوى العالمى ـ كبيكاسو مثلا أو ماتيس وغيرهم ـ فهم من أكثر الناس إهتماما بالتراث ؛ ذلك أنهم وجدوا أن تراثهم لا يكفى ، فبدأوا يستوعبون تراث البشرية .

● علينا إذن أن نستفيد من العصر فى الناحية العلمية والتكنولوجية . وأن نحذر تقصير العصر فى الناحية البصيرية ونعوضه بمجهودنا الخاص ؛ ولدينا فى التوجيه الإسلامى نقطتان : القرآن المقروء : والقرآن المرئى .

أما القرآن المقروء فيبدو أنه معروف . وأما المرئى المنظور فهو غير المعروف ، لأنه مامن أحد يتوفر على أن يعرف الإبل وكيف خلقت . . والجبال وكيف نصبت . . الخ أى الكيفية التى بنيت عليها الأشياء . وهو توجيه صريح . وعن طريق الإستجابة له لا يصبح الإدراك إدراكا ذهنيا فقط بل بصيرياً أيضا ، يرسب فى أعماق روعك

أو ضميرك أو نفسك إدراكا لحكمة الوجود ، وإنفتاحا على قلب معنى المعنى .

● ونعرف أن وظيفة التربية الفنية من وجهة نظرنا هى تأمل الطبيعة والتراث . وقلنا أننا لكى نرى الطبيعة جيدا لابد أن نستعين بتراث البشرية كله :

بمجهودات الصين .. وكان من حظى أن عشقت الصين منذ زمن وكان لها علىّ فضل كبير . ومن هذا الفضل حبى للطبيعة لأن الفن الصينى فن عاشق للطبيعة وكاشف لها . ومن يصاحبه يجد أنه يساعده على أن يصبح صاحب بصيرة فى الطبيعة .

والفن الأوروبى .. يرينا جانبا آخر هو البشر .. الناس .. جسم الإنسان . ومن يحب أن يعرف شيئا عن جسم الإنسان يرى الفن الأوروبى إبتداء من اليونان حتى آخر عصر النهضة ، سيجد قطعا أشياء كثيرة فى الإنسان لم تكن لتبين له بدون تلك الرؤية . إن الإنسان يدرك عن طريق كل الفنون .

● إن الفرق بين الإنسان وبين أى شىء آخر هو الوعى . والوعى بالمعنى هو وظيفة الوعى .

فحين نساعد الطفل أن يعى منذ البداية أن تراث البشرية كلها هو تراثه هو : تراث البشرية فى العلم وفى الفن وفى البصائر .. وهكذا .. فالطفل هو وريث البشرية وأملها ..

والمفروض أن يأخذ ما حصلته البشرية ويواصل المسعى ويضيف إليه .

لماذا كل البشرية ؟

إن أوروبا اليوم أو قل أوروبا وامريكا وروسيا يمرون فى أزمة فكرهم المادى الأساسى الذى يكتفى فيه الإنسان بذاته وبنفسه وفشل فى أن يجعل الإنسان يعيش لحاجة غير القوة والمال . والإنسان إذا وقفت حياته فى نهاية الأمر عند هذا إنسان فاشل لأن معنى الحياة الحقيقى من وراء القوة والمال .

هذا ما يقوله تيار الحياة العام اليوم وإن خالفة بعض قمة المثقفين الأوروبيين الذين يؤمنون بأهمية الروح ما فى ذلك شك ويلومون عصر ماديتهم المسيطر . وعلى رأسهم فيلسوف مثل « يونج » فى كتابه «Modern mon in search for a sool» وتسمية الكتاب تعنى ببساطة إن الإنسان اليوم يفتقد معنى الوجود ومعنى الحياة . . وكتاب « أزمة العصر » الذى يستعرض فيه مجموعة كبيرة من المفكرين آراءهم فى العصر .

ثم أخيرا الناقد الفرنسى « رينيه ويج » وهو يتكلم - فى أثناء حضوره العرض الأخير الذى أقامه أصدقاء الفن والحياة فى باريس - عن المادية الضاربة أطنابها فى المعسكرين الشرقى والغربى . . ولم يكن محتاجا أن يدافع عن فرنسا - وهو الفرنسى - لأنه أعقل من هذا .

هذا من جهة جعل الأوربيين يشعرون أن خلفيتهم أو تراثهم

لا يغنى . . ومن جهة اخرى فإنه نتيجة الإنفتاح الذهنى والنظرة العالمية الحديثة والنظرة العلمية للأمور ، أصبح الإنسان المتفتح القلب لا يعتبر تراثه فقط هو المستحق للدراسة بل تراث البشرية كله لأنهم تأكدوا أن تراثهم وحده ـ المبنى على إنشغال الإنسان بنفسه نتيجة الفلسفة الإنسانية أصل فلسفتهم ـ لم يصل بالإنسان إلى السعادة ، فبدأوا يبحثون فى جميع الإتجاهات .

● **إن ما نريد أن نؤكد عليه أننا لا نقصد من دراسة التراث أن نسير ورؤوسنا متجهه إلى الخلف بدل الأمام . إنما المفروض أنى لكى أسير إلى الأمام أن أكون مزودا بخبرة العصور الماضية لاستوعبها وأضيف إليها**

وكما قلنا عن الإنسان أنه يمتاز عن سائر الكائنات بالوعى . .
فهو يمتاز عليها أيضا بالعمل .

العمل وليس الفكر وحده لأن الفكر سند العمل ونوره ـ أما لو كان الأمر قاصرا على الفكر لانتهى الإنسان من زمن ولانتهى الفكر أيضا . فجزء أساسى من خصائص البشرية لكى تعيش سعيدة ، أن تعمل والعمل ليس الكد والعرق كما يقولون فهذا مفهوم فج عن العمل وسيأتى يوما لن يوجد فيه عرق ولا كد فى العمل بالمعنى الحيوانى ولكن سيكون هناك عمل على مستوى أعلى من هذا بكثير .

● لا نقول هذا لنقل من شأن العمل اليدوى .
فنحن نعتبر أن نقطة البداية فى البشرية هى اليد فهى رمز القدرة للإنسان

الإنسان يصنع ذاته وهو يعمل بيديه عملا بشريا سويا خلاقا .

وكل الأشياء والكائنات تعمل .
أذكر يوما كنا نجمع فيه البلح من النخيل وكان قريب لنا موجودا فنظر إلى النخلة بعد أن جمع البلح منها وقال إن النخلة الآن تعمل لبلح الموسم القادم وكان يعرف وهو الرجل الزراعى أن النبات لا يقف ساكنا بل هو يعمل طول الوقت بدءا من الجذيرات التى تمتص المحاليل من التربة لترفعها عبر مضخاتها إلى أعلى . . والمعامل التى تحولها إلى ذلك البلح الشهى مثلا .

كذلك نحن نعرف أن الأجسام الصلبة مكونة من جزئيات غير منظورة ودقيقة وفى حركة دائبة ، هناك حركة موجودة فى الكون باستمرار : فى الحجر والشجر والحيوان والكل ، إنما الفرق بينها وبين الإنسان أن الإنسان له القدرة على توجيه الأشياء :

فالنخلة مثلا قادرة على عمل نوعية معينة من البلح . .
أما الفنان فيمكنه أن يبدع أشياء متعددة
ومتنوعة ومتجددة

فالعمل البشرى ، إذا كان غير آلى . . وإذا لم يكن على وتيرة واحدة ، وإذا كان وسيلة للإنسان لتحقيق ذاته ، فهو المعنى الصحيح للعمل . لذلك نطالب أن يكون التعليم اليوم عن طريق العمل .

- لذلك قدمنا ـ لوزير التعليم ـ ورقة من وجهة نظر أصدقاء الفن والحياة فى خطة التعليم وما ينبغى أن تكون عليه .

كلنا متفقون على وجوب حدوث تغير فى التعليم . أما كيف فهنا توجد الإجتهادات المتعددة . وقد قدمنا إجتهادنا .

والنقطة الأولى فيه تقول :
إن التعليم اليوم يعتمد على التلقين والحفظ والإمتحان . .
وهذا يؤدى إلى السلبية ، بينما لابد أن يكون هدف التعليم هو تنمية الخلاقية
وذلك لا يكون إلا عن طريق التربية بالعمل .

لقد كنت حريصا أن أستمع - فى الإذاعة إلى الجلسات التى يعقدها الرئيس مع المعلمين وأساتذة الجامعات وغيرهم . وأريد القول إنه اللهم إلا فى النادر ما كانت تلمس ناحية العمل بالمعنى الذى نقصده : إنما كانت تلمس ناحية الحاجة إلى التدريب . وقطعا نحن نريد ذلك أيضا ، ولكن ليس لمجرد تخريج الحرفى الآلى غير الخلاق وغير المثقف وغير المحقق لذاته .

ونظرا لقلة الحرفيين من سباكين ونجارين وبرادين مثلا فالمناهج الجديدة تقرر عمل تدريب مهنى يخرج لنا مجموعة من هؤلاء الحرفيين ولكنا - نحن أصدقاء الفن والحياة - لا نقف عند هذا بل نقول إنه لابد أن يكون الإنسان عاملا ولابد أن يكون عمله وسيلة لتحقيق ذاته وذاته هذه لابد أن تتجدد وأن يستمر نماؤها على الدوام . . وأن يتعلم عن طريق هذا

العمل . . وأن هذا ليس أمرا سهلا ولكنه أمر ضرورى .

● قد يتساءل البعض عن كيفية التحقيق ؟

وأشرح كيف يكون ذلك من واقع ممارستنا كلنا كأصدقاء فن وحياة : حين رغبنا فى التعرف على الذات المصرية .. ماذا فعلنا ؟ ذهبنا لرؤية أعمال هذه الذات عبر العصور . وقلنا أنه إذا أردنا أن نري الذات المصرية حقيقةمرأى ، رؤية قابلة للتمحيص ، فما علينا إلا أن نذهب إلى ما نسميه آثارا : دقيقها وجليها لنرى ما حققوه من قيم ، لأن هذه القيم كان منبعها ومصبها هى الذات المصرية :

فالهرم مثلا ونحن نتكلم عنه باعتباره انجازا مصريا عن طريق البناء .. هنا هم تعلموا هندسة من بناء الهرم لاشك فى هذا وفى بناء الهرم أيضا ، واستخدموا الهندسة التى عرفوها من قبل بناء الهرم فى عملية بنائه . وهم لم يتعلموا الهندسة فقط من بناء الهرم ولكنهم تعلموا أيضا كيف يعملون سويا كيف ينظمون الآف الناس الذين حكى عنهم « هيرودوت » والذين ظلوا يعملون ـ حوالى عشرين عاما في بنائه ـ على قلب رجل واحد ..

كما نعرف من علماء الآثار فإن الحجارة كانت تأتى من منبعها من المحجر فى الضفة الشرقية من الجبل الأم. ومكان كل منها فى الهرم معروف دون ضياع .. وبعض الحجارة كانت تأتى من طرة والبعض الآخر من نفس المنطقة مثل هذه المشاريع الكبرى كان فيها تحقيق للذات

● ولو تأملنا مشروع آخر تم فى اكتوبر ١٩٧٣ هو العبور :

كان عملاً ثقافيا جماعيا بكل المعانى . .

ولكى يتم كان لابد أن يعمل الجميع على قلب واحد ليتغلبوا على العائق المائى : بدأت مجموعة من الباحثين من المواهب المتعددة تعمل كفرقة واحدة وكسبت معلومات جديدة . . وطورت أسلحة قديمة . . وتدربت على تحقيق أعمال عبور وعلى تدريبات وقدرات معينة قبل البدء بالعمل .

كل هذا يرينا بالمقياس الكبير كيف يمكن للعمل أن يكون وسيلة لتحقيق الذات .

● تقولون ، كان هناك دافع

نعم ، ووظيفة المربى الأساسية لها شقان

الأول :

أن يخلق الدافع . . المحرك أى أن يحمس الإنسان لعمله .

والثانى :

أن يكون رقيبا على نوعية العمل : فإذا هبط لمستوى الآلية يحركه أما إذا هبط إلى مستوى الرداءة التى قد تكون الآلية سبب لها . . أو أن يكون الطموح قد خفت ولم يعد التجويد سمة العمل فلابد هنا أن يحفز المربى العامل ليسابق نفسه حتى يكون عامل الغد سابقا لعامل اليوم والأمس .

● والتحميس للعمل غير التشويق . . فى التشويق شبهة الرشوة أن

تحبب إليه شيئا غير مستساغ بتغليفه بالسكر . بينما المفروض أن نحرك داخله الدافع السوى السليم لكى يعمل لهدف كبير يراه ويحبه ويتحمل فى سبيله ليس فقط الأمرين بل كل المرارات ويستعذبها . ألسنا نقول « تعبك راحة » . لماذا ؟ لأنى أحبك فلذلك التعب فى سبيلك راحة لى . وكونى استاذ تربية فنية علىّ أن أكشف له نواحى الكمال كما أكشف نواحى القصور ليحقق الكمال المتاح له . وحين يصل إلى الكمال أريه القصور فى هذا الكمال ليحقق ما هو أكمل . . وهكذا . وهذا هو الدافع السليم .

● ماذا يفعل المربى الحقيقى ؟

هو يكشف ـ عن طريق التبصير ـ منهجية العمل الصحيح . . ومُثُل العمل الصحيح . ومع نمو خبرة المتعلم ـ وباستمرار ـ يعطى المنهجية عمقا أكثر ويعطى المُثُل مستويات أعلى .

نمثل بالفن الإسلامى :

إن سر الفن الإسلامى هو الإسلام

ليس كصلاة وصوم فقط بل كرؤية قلبية هى سر الصلاة والصوم

فمن يعمل فى طباعة المنسوجات هو يعمل ذلك ظاهريا ولكنه فى الحقيقة يعمل نفسه من خلال عمله السوى وأسلوب ذلك العمل .

● ولو أن التعليم الفنى الصحيح فى كلية الفنون التطبيقية فى ناحية

طباعة المنسوجات لا يوجّه الطالب لمجرد الطرز ؛ بمعنى طراز إسلامى . . وطراز نهضة . . وطراز . . الخ كمجرد وصفات ظاهرية ، إنما ماهى النهضة ولماذا كانت منسوجاتها بهذا الطراز . وماهو روح الإسلام ولماذا كانت منسوجاته على هذا النحو . وهكذا عن طريق هذا الشرح تدرك نفس الطالب بعمق معنى هذه الثقافات المختلفة أى معنى هذه المثل

كذلك فى اسلوب الطباعة سواء كانت بالشاشة الحريرية أو بالباتيك أو بالطباعة . .

لايوجد موضوع من الموضوعات إلا
ويمكن ـ إذا تناوله الذهن والإدراك البشرى
المتعدد الجوانب ـ أن يجعل من
يتناوله بالعمل الصحيح يتعرف على الدنيا كلها .

وهذا هو المنهج الذى نريد من خلاله أن نخرج النفوس من عطلها . . من سلبيتها لتحقق ذاتها ؛ بتعريفها أن الخلاقية هى سر الشخصية وسر نمائها . . فهى تخلق قيمة باستمرار عن طريق استمرار خلق قيم أعلى وأعلى .

● فإذا فقهنا الإنسان منذ طفولته بالعمل البشرى السوى غير الآلى الذى تتخلق فيه القيمة والذى يقود لقيمة أكبر . . ولتوسيع الوعى بماضى العمل الذى يعمله ، وبما يعمله الآن ، وبالكون كله من خلال هذا

العمل أيا كان . . أمكنتنا بذلك أن نخرج الإنسان الذى يعتبر رصيدا للبلد وليس دينا عليه .

ثم إن مثل هذا الإنسان سيكون سعيدا ، لأن السعادة الحقيقية فى العمل السوى .

● ولقد توقفنا نحن ـ هنا فى مصر ـ مدة كبيرة من الزمن عن أن نعمل ما من شأنه أن يحقق ذواتنا ؛ فبينما كنا فى الماضى ننتج ما نحتاج إليه ، أصبحت حاجاتنا اليوم تصنع لنا فى الخارج ونستوردها . وكان فى هذا جناية علينا كشعب ليس من الناحية الإقتصادية فحسب إنما خسارة فى تحقيق ذاتنا .

علينا إذن أن نعمل ما نحن قادرون فعلا أن نبدع فيه ونأخذ من الآخرين ما هم قادرون أن يبدعوا فيه . والإجتماع البشرى على المستوى العالمى يستفيد من هذا لأن المتداول عالميا سيكون من مستوى الإبداع البشرى لكل الشعوب وبذلك تثرى الشعوب وتصبح أغنى معنويا .

● وإذا كنا نعانى من منعنا من أن نعمل أعمالا خلاقة فإنهم فى اوروبا والعصر يعانون من نوعية العمل المتاحة لهم اليوم وهى نوعية قاتلة لأن العمل آلى وهو يحوّل الإنسان إلى آله . وهنا وجد مشكل من مشاكل العصر ؛ فقد أصبح الإنسان ثروة كبيرة وفراغ كبير ولا روح فيه .

● من هنا نقول إننا بلد عريق فى العمل . ولنا شخصية حصلناها عن طريق ما أنجزناه من أعمال خلاقة ، وعلينا أن نتغلب على واقعنا اليوم عن طريق العمل : والعمل السوى بحيث لانقع فى خطأ العمل الآلى الأوروبى .

وليس معنى هذا ألا نعمل العمل الآلى بل نعمله كضريبة وواجب ولكنا نقترح أن يعمل العامل فترة واحدة فى مثل هذا العمل أى ثمانى ساعات فقط أما باقى اليوم فلابد أن يعمل عملا يبنى كيانه . . عملا فيه خلاقية . ومن هنا تأتى أهمية فكرة الأسر المنتجة والبيوت المنتجة حيث يعمل الإنسان عملا يحبه وينفعه وله قيمة وفيه خلاقية .

ونحن نتطلع إلى المدرسة كوحدة منتجة قوامها العمل السوى .

٧ — أبعاد لا تنسى

● أركز على تقديم عمل جميل للدكتورة « سمية أحمد فهمى » : كتاب صدرت طبعته الأولى عام ١٩٧١ م وهذا العام صدرت طبعته الثانية هو كتاب « علم النفس وثقافة الطفل »

● كلنا يعرف الدكتورة سمية كأستاذة بمعنى الكلمة :
فهى تملك موضوعها . .
ولديها القدرة على التوصيل .

بمعنى أن الفكرة تكون واضحة لديها وضوحا بلّوريا : لا تفكك ولا تردد ولا غموض فى الفكرة . . تعرف حدود الموضوع . . وتعرف فيم تريد أن تتكلم .

وحتى هنا هى تشترك مع أساتذة آخرين فى ناحية المعرفة والاقتدار كأساتذة علم نفس . أما القدرة على توصيل الفكرة للغير فهنا تتقدم الدكتورة سمية حيث يتراجع الكثيرون فلديها الموهبة فى الناحيتين : الرؤية الذاتية للموضوعات وإمتلاك ناحيته والقدرة عليه . .

والتعبير بلغة عربية سليمة وقوية عما تريد قوله وبأسلوب سلس بحيث

أن القارىء الذى يدرس الكتاب عليه أن يحترس فى الإنزلاق فى القراءة السريعة إستجابة لطلاوة الأسلوب فتغيب عنه بعض الآراء الهامة فى الكتاب .

● نلحظ ثلاث نقاط فى هذا الكتاب

ا ــ الرؤية الواضحة : فقد حددت المشكل . لم تقل ثقافة الطفل فقط بل ثقافة الطفل وعلم النفس فأصبح الموضوع ثقافة الطفل من هذه الزاوية زاوية علم النفس . كذلك ليس علم النفس على إطلاقه ، إنما علم النفس فيما يختص بثقافة الطفل .

ب ــ أسلوب التعبير : ليس من ناحية فصاحة اللغة العربية الموجودة والجميلة ، إنما من ناحية الأداء التعبيرى .

حـ ــ تقسيمها للموضوع بالنسبة لمن توجه هذا الكتاب .

● وهذا الكتاب مجموعة محاضرات طلب من الدكتورة « سمية » عن طريق وزارة الثقافة أن تلقيها على مجموعة من الدارسين الذين يُعدون لكى يعملوا فى حقل ثقافة الطفل .

هناك مراكز ثقافية تقيمها وزارة الثقافة لثقافة الطفل . فدعيت باعتبارها أستاذة فى علم النفس ولها حب حقيقى للأطفال . . واقول حقيقى أى أنه ليس مجرد انفعال عاطفى بل حب حقيقى يؤدى إلى عمل فيه خير للأطفال . فيه ناحية إيجابية ممتازة .

ثم إن المربية بداخلها تجعلها لا تكتفى بأن تضع مبادىء علم

النفس ، إنما توضح كيف يمكن لهذه المبادىء أن تطبق للمشرفين أو العاملين على مراكز ثقافة الطفل .

● والكتاب ليس كبير الحجم ولكنه كبير القيمة فهو قطعة من التفكير السليم مطبق وموصف فيه المناهج وطرق تنفيذها وكيف تكون .

وقد أردت أن أنبه لهذا الكتاب ولى عليه بعض التعليقات ، وهذه التعليقات التى سأوردها ـ بعد ما سبق أن قلته ـ هى من خارج الإختصاصات التى تكلمت هى من أفقها ، ولكنها فى ضوء ما قلناه من قبل ليس فى عام الطفل فقط إنما فى مناسبات أخرى فى إجتماعاتنا كأصدقاء فن وحياة .

نقول إنها أدت المطلوب منها بالأمانة العلمية . . والدقة . والإحاطة الجديرة بالتنويه حقيقة .

ولكن الموضوع له أبعاد أخرى :

١ ـ البعد الأول :

هو الخلفية القبل علمية : أى الخلفية قبل البناء العلمى الذى أشرنا إليه فى حدثينا الأول حين قلنا أننا نريد أن نعطى الطفل رؤية فى الحياة يستضىء بها .

هى قالت فى كتابها إن هذا الموضوع لا يدخل فى علم النفس إنما يدخل فى نواحى الفكر الأخرى حيث تقول « . . إلا أنه فى سعيه بحثا عن المعنى يباده الإنسان فى النهاية السؤال المحير عن معنى وجوده هو . هنا يقصر العلم عن مدِّه بالإجابات الكاملة ، فالعلم

يستطيع أن يجيب عن السؤال كيف ؟ ولكنه يعجز عن الإجابة عن السؤال لماذ؟ وهنا المجال واسع للإبداع الفكرى فى الثقافات المختلفة . . »

لذلك قلت إنها عملية قبل علمية : فعلم النفس لاغبار عليه من الناحية العلمية إنه يتبع المنهجية العلمية فهو يعرف حدود نفسه الأمر الذى يعتبر من علامات نضج العلم بعامة .

ولكن ما يهمنا هم أطفالناكآدميين وكمصريين ولأنهم مستقبلنا . وهذا المستقبل فى أيدينا إلى حد كبير فمعالجتنا لهؤلاء الأطفال تسهم فى صناعة المستقبل . ونحن حين نلاحظ أزمة الشباب فى هذا العصر من جهة . .

وأزمة النامين الكبار فى السن كما يشهد عليها علماء النفس المختصون بمعالجة المرضى النفسيين الذين يرجعون أسباب تأزمهم نفسيا إلى أن العصر لا يزودهم بمعنى للحياة يستحق أن يعيشوا من أجله ويعطى معنى لحياتهم . من جهة اخرى حين نلاحظ هذا وذاك ندرك أنه لابد من وجود شىء ما فى النظام الإجتماعى يقصر عن أن يزود بها المواطنين . . شىء ما ينقص . .

هو معنى الحياة . .
ماذا أريد . . ؟ وما سر وجودى . . ؟
ما وظيفتى فى الحياة . . ؟ ولماذا جئت إلى هذا الكون كله . . ؟

فإذا أقمت ملايين المراكز للطفل ولم يكن فى صدور المشرفين على هذه المراكز إيمان بنور معين لمعنى الحياة فسيظل هناك شىء ما ينقص .

٢ ـ البعد الثانى :

إن الدكتورة « سمية » عرفت علم النفس بأنه علم السلوك البشرى . وباعتبارها ملتزمة بالعلم وبعلم النفس لم تقل أن علم النفس هو دراسة النفس وإلا لسألناها وماهى النفس . ولأنها لا تريد الدخول فى هذا المشكل قالت إن علم النفس هو دراسة السلوك وهذه هى الأمانة العلمية .

ولكن هذا لايمنع من أن هناك نفسا . وليس من الضرورى لهذه النفس ـ فى كل انشطتها ـ أن تبدو فى سلوكها .

فى مقال قديم لى كتبته باعتبارى إنسان أولا وليس فنانا ـ أعتز بكونى إنسان لأن هذا يعني بالضرورة كونى فنان فى الحياة بينما يجوز أن أكون فنانا مصوراً وممتازاً ولكن حياتى لا فن فيها على الإطلاق حينئذ أفقد إنسانيتى ـ وقلت فى ذلك المقال« إن الفن مرحلة تجتاز » ولم يسألنى أحد عن معنى ذلك :

حين أعمل عملا فنيا بعد تأملاتى الفنية يمكن لطبيب نفسى أن يدرسها فهى تعبر عن سلوكى فى فن التصوير . أما أنا كإنسان خاصة حين أنمو فى السن وأصل إلى ما وصلت إليه فإن لى هدفا فوق الفن ، هو هدف

الإنسان كإنسان ولا علاقة له بالسلوك . . هو وراء السلوك وكان السلوك تحضيرا له . هذا الهدف هو الله .

فهدف الإنسان من كل ما يعمله . .
من كل سعيه فى الحياة . .
أن يتقرب إلى الله . .
ويستعد للولادة الثانية
فى عالم آخر .

أى أن هنا الخروج من مرحلة الجنين والولادة فى هذا العالم المنفتح ، ، وفى آخر الحياة هناك ولادة فى عالم ثانى ، والمفروض أن يعد الإنسان نفسه لذلك . فإذا كانت الدكتورة سمية تقول فى كتابها أن ثقافة الطفل تبدأ من قبل الولادة أى عن طريق الأم والأب واختيارهما . . فأنا أقول أن الإنسان فى حياته - ومنذ بدئها - عليه أن يعد نفسه للولادة الثانية أى فى العالم الآخر .

والذين يفهمون دينهم جيدا سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين يعرفون هذا جيدا ويأخذ هذا الإعداد صورا مختلفة تتوقف على الثقافة الدينية للشخص نفسه . وهذه حقيقة نفسية وجزء من سلوك الإنسان ولكن معناها ومضمونها خارج علم النفس . . قد تتبع الديانة . . قد تتبع التصوف . . قد تتبع الفلسفة ، إلا أنه عموما فمن المهم أن يعرف الإنسان أن هذه المرحله ، مرحلة بعد النضج وبعد الكهولة ، ليست مرحلة سلبية فمهمتها مهمة جدا وإن كنا نجهل هذا ونرعب جدا

وتخاف الموت بينما المفروض أنه أمر حتمى وهو أمر الله وهو يختاره فى الوقت الذى يريده وعلى الإنسان أن يكون مستعدا له .

هنا توجد مرحلة ، بعد ، ووراء الفن
لذلك قلت الفن مرحلة تجتاز

وباعتبار الطفل بذرة الإنسان فلا بد أن يزود من الأول بشىء من الوعى وطبعا ليس بهذا الكلام الذى لايقال للأطفال

٣ ـ البعد الثالث

هو أن الدكتورة « سمية » تتكلم عن سلوك الإنسان بمعنى أخلاقه وهى تنبه الناس إلى أن سلوك الإنسان فى المجتمعات يختلف من مجتمع لمجتمع : فما يعتبر سلوكا جيدا فى مجتمع قد لا يعتبر كذلك فى مجتمع آخر ولى تحفظ على هذا القول الذى يبدو صحيحا على ظاهر الأمر وواضح لكل من يدرس علم دراسة الإنسان وسلوكياته قدر اختلاف هذه السلوكيات من مكان لآخر . .

ولكن ما أريد قوله هو أن السلوك باعتباره أخلاق يتضمن ما نقول عليه خير وشر . ولو سلمنا بهذا فنحن نسلم بمبدأ خطير جدا هو أن الخير والشر مسألة تتوقف على المجتمع الأمر الذى يدخل للبشرية منه متاعب كثيرة جدا . ويصبح المقياس غير موضوعى لسلوك الإنسان ولكن ما أتكلم عنه أعلى من هذا وفوق هذا . .

وأقول أن هناك مستويين من السلوك ، ومستويين من الديانة ، من المهم جدا أن نعيهما كمثقفين وبالتالى فى إعدادنا للطفل .

يشير لهذين المستويين الفيلسوف الفرنسى « هنرى برجسون » حين يشير إلى الأخلاق المقفلة والأخلاق المفتوحة ، والديانه المغلقةوالديانة المفتوحة فى الديانة الواحدة . ففى الإسلام مثلا هناك مسلم إدراكه للإسلام يتبع الديانة المغلقة ومسلم إسلامه فى مستوى الدائرة المنفتحة . بمعنى أنه هناك من يأخذ الديانة بشكل بعيد عن الجوهر ولو أنه يؤدى كل الشعائر والفروض ومثل هذه المتطلبات من

هذا القبيل ، لكن معنى الإيمان بالله ومعنى وحدانيته بعيد عنه . هو يقولها بلسانه ولكن لايوجد عنده إدراك حقيقى لهذه المعانى النبيلة . هناك إذن إدراك المتدين على المستوى المتفتح الفوقى الذى ينظر للبشرية كلها ولحقائق الكون من أفق لا يفصل مجتمع عن آخر ولا عن المجتمع البشرى كله بل ينظر لما وراء ذلك .

وتذكرون كتاب « الفلسفة الباقية » « لهكسلى » وقد قدمت لنا الدكتورة « سمية » فصلا من فصوله عن المحبة . وهو يشرحها باعتبار أن المحبة بمفهومها المسيحى ومفهومها الإسلامى ومفهومها الإنسانى الكبير كما يشرحها كبار المتصوفة بعيدة عن المحبة بالمعنى الدارج الذى يتداوله الناس والذى يختلف من عصر لعصر ومن مجتمع لآخر أما المحبة بذلك المعنى الكبير لا تختلف من عصر لعصر ولا من ثقافة لثقافة على فرض أن هذه الثقافات نما فيها الوعى للدرجات العاليةحسب الرأى الذى نؤمن به والذى يؤمن به « هكسلى » فى كتابه « الفلسفة الباقية » . فهنا مستوى من السلوك

لا يحدث فيه اختلاف ولاتباين بين الناس بل وفاق واتفاق . . وعلينا أن نعد الناشىء لإدراك تلك الآفاق .

البعد الرابع :
أنه فى الخطة الجميلة والمكتوبة بنصاعة فكر ومهندسة بوعى كبير يغيب ـ كما أتصور ـ عنصر مهم فى ثقافة الطفل هو عطاؤه لمجتمعه . . عطاؤه الإيجابى ليس بالضـرورة فى الناحيـة الإقتصادية . بل أريد للطفل أن يشعر أثناء تكوينه الثقافى بأنه ـ لاكتمال نضجه ـ لابد له أن يكون صاحب عطاء . . خدمة . . إنجاز إيجابى يعين المجتمع اقتصاديا وإن كنت لا أقف عند الإقتصادى فقد يكون عطاءً إجتماعيا خدميا : فنحن كمجتمع مصرى نعرف أن المنتجين نسبة صغيرة بالقياس إلى من يحتاجون الإعالة من أطفال وكبار وأريد لذلك للطفل أن يعرف أنه يقدر أن يعمل ويخدم ويضيف .

البعد الخامس
إن هذه النقاط التى اتكلم عنها لا تمس الكتاب فى صميمه فكما قلت فإن الدكتورة « سمية » تتكلم عن « علم النفس وثقافة الطفل » ولا تخرج عن التزامها بهذا الموضوع .

إنما أريد أن أقول أن هذه الأبعاد الأربعة مطلوبة عند الشخص الذى سيتولى أمر ثقافة الطفل : أى فى تكوين هذا الشخص الذى نسميه

المربى أو المثقف ، فإذا مارس هو هذه الأمور ورعاها فى نفسه فهناك أمل كبير أن تنتقل إلى الطفل .

● وبعد فأحب أن أنوه أنه من الجميل فى هذه الكتاب مفهوم الثقافة نفسه : فهى لم تحاول أن تعرف ماهى الثقافة ، إنما أخذت أمثلة من المادة الثقافية التى نتفق كلنا تقريبا عليها . وبدأت تحلل مافيها من قيم وتكشف كيف أنه من الممكن العناية بهذه القيم من خلال الإستجابة للحاجات البيولوجية والنفسية للإنسان . أى أن منشأ هذه القيم فى الإستجابة لهذه الحاجات . وأنه ليس لنا الحق فى أن نهزأ بمحاولات الأطفال الخاصة الصغيرة وهى تؤكد هذه النقطة مرارا وتطالبنا بأن نحترم الطفل ونحترم إنتاجه ونتعهد تطوره .

وقالت إن الطفل نفسه هو الواجب أن يقود عملية تثقيف نفسه وأننا - نحن الكبار علينا فقط أن نحيط به ونساعده على إيجاد الظروف المناسبة لكي ينمو وينمى شخصيته الثقافية . .

٨ — أهمية التحرير الثقافى

وبعد . فإن هدفنا الأساسى ـ نحن أصدقاء الفن والحياة ـ هو إعادة بناء الشخصية المصرية .

وهذا يعنى أننا نؤمن بوجود شخصية مصرية ودليلنا على ذلك هو منجزات الشعب المصرى عبر العصور ، بل من قبل العصور الفرعونية حتى قبل دخولهم تحت جناح الثقافة الغربية .

هناك خيط يربط هذه الأعمال ببعضها البعض ، الأمر الذى يدعونا إلى القول أن هذا الشعب له نوعية من القيمة تجمع منتجاته هى حصيلة مسعاه ونموه من شعب بادىء فى العصور الحجرية الحديثة .

حتى دخل وحقق الحضارة الفرعونية . .

ثم فقد كيانه فى الفترة الهيلينستية ودخل منطقة أسر كالتى نعيشها اليوم ونحاول أن نخرج منها . .

وحين جاءت المسيحية رحب بها وخرج الفن القبطى الذى ، وإن اختلف فى المظاهر عن الفن المصرى إلا أنه مصرى مسيحى تعمره الروح المصرية . وحين جاء الإسلام لم يكن التفتح له بأقل مما سبق

بل اعتبر الإسلام تكمله للمسيحية واعتبر الإثنان ديانتين سماويتين واستمر النمو الذى بدأ فى العصر المسيحى حتى وصل ذروته فى الناحية الفنية فى العصور المملوكية . .

ولما جاء العصر التركى بدأ يظهر نوع من الفتور . .
وفى العصور الأخيرة وابتداء من الحملة الفرنسية فالإنجليزية دخلت البلد ثقافيا فى أسر الثقافة الأوروبية .

● ونحن نقول كمجموعة من المصريين تؤمن بوجود شخصية مصرية أنه كما يوجد تحرير حربى وتحرير سياسى وتحرير إقتصادى ، لابد أن يوجد تحرير ثقافى أيضا ولابد أن تستعاد الشخصية المصرية .

● ولا يعنى هذا أن نحصر أنفسنا فى تقليد التراث القديم . .
بل معناه أن نستوعب حكمة هذا التراث

وأن نعى من هو المصرى معنوياً ؟
وماهى القيم الأساسية للشخصية المصرية
بصرف النظر عن الظاهريات . ماهو الجوهر ؟
وأن ندرك عصرنا الذى نعيش فيه
فلا نريد أن نكون تابعين لأى من
العصور الماضية إنما أن نكون
امتدادا سويا للشخصية المصرية فى هذا العصر .

● هذه هى الفكرة الأساسية للفن والحياة .

ومن زاوية هذا الفكر لنا توصيفنا لتحقيق الخلاص الثقافى ويتلخص فى ركائز أربعة :

١ ـ التعليم : وقد وضعنا بداية فكرنا فيه عام ١٩٦٩ فى احاديث تمت فى الجمعية الجغرافية . . وقد جمعت وطبعت فى كتاب « الفن وإعادة بناء الشخصية المصرية » . ولم يكن لدينا أمل أن تتعاون وزارة التربية والتعليم جديا مع الهدف فاكتفينا بوضع المبادىء الأساسية .

٢ ـ الصناعة : ونحن نعتبر أن المجتمع الذى يصنع منتجاته يصنع ذاته . كذلك الفرد الذى يعمل عملاجيداًيحمل قيمة فهو يجوّد نفسه أيضا . ولما توقفت البلد عن صناعة إحتياجاتها بأيديها توقفت أيضا عن صناعة ذاتها : أى أصبحت عالة على الآخرين وبالتالى تابعة لهم ثقافيا ومعنويا .

وأقصد بالصناعة كل ما نصنعه بدءا بالعمارة فالإنارة والكساء والأثاث والزينة الشخصية والكتاب وكل فنون الحياة .

٣ ـ المرأة : ونعتبرها أساس ونقول إن الإنسان رجل وامرأه وطفل إنما الركيزة الأساسية المرأة لأنها المربية الاولى الحقيقية وهى التى تضع الأساس . وعليها أولا أن تعيد بناء ذاتها حتى تصبح مصرية معاصرة حقا وليست مجرد عبدة « للموضة »

وبحيث تصبح هى نفسها عطاءً ثقافيا وجواً سليما يعيش فيه الإنسان الجديد .

٤ ـ الطفل : وهو الركيزة الرابعة والأخيرة وهو مناط الأمل وبيت القصيد .

- وإذا كنا فى هذا العام الدولى للطفل ننادى بالإهتمام بصحته وبتغذيه فمن الضرورى أن نهتم بغذائه المعنوى والروحى وهذا ما كنا نحاول حتى الآن توضيح الطريق إليه .

- إن طفل اليوم هو إنسان القرن القادم .

- وإنسان اليوم يعيش فى أزمة كبيرة : فقد بدأ يتشكك فى كلمة مدنية ليس فقط بمعنى الحياة .. بل بمعنى السعى كله حتى العلم نفسه ويدأ الناس يتساءلون إن كان العلم هو سبب كل هذه المصائب . والحقيقة إن العلم مظلوم وإن كان ليس مظلوما مائة فى المائة فقد حقق الكثير من المنجزات فى الصحة والصناعة ومثل هذه الأمور التى جعلت بعض الناس فى بعض أنحاء العالم يعيشون فى شىء من الرغد والغنى .. ومع ذلك يعيشون فى نفس الوقت فى خوف ورعب : إن تهديد الحرب النووية يجعل الإنسان فى كل أنحاء العالم يعيش كالمحكوم عليه بالإعدام وفى انتظار ساعة التنفيذ .

فمن جهه ـ يسيطر ذلك الرعب بفضل المنجزات العلمية العجيبة ..

ومن جهه أخرى فإن تربية الإنسان المعاصر أخفقت فى مواجهة المشكل .

- من هنا نقول أنه فى الوقت الذى نطالب فيه باعطاء الطفل مصباحا فى يده ينير له الطريق نطالب بإعطائه سلاحا يقاوم به هذا الطوفان أو هذا الوحش الذى يتربص بمصيره :

أى كيف يواجه الطفل هذا المشكل
مشكل حياة البشر اليوم .

- نحن نعطى أطفالنا السم المعنوى بجانب الغذاء :

نلقنهم كثيرا من الأفكار الضيقة كفكرة ألمانيا فوق الجميع التى نشرها الألمان فى عصر هتلر فى كل مكان وفى كل مناسبة .

أو حين نقول نحن إن مصر فوق الجميع . . هنا وطنية ضيِّقة ونحن نقول إن مصر هى مجموعة القيم التى كان لها الفضل فى إظهارها للوجود وأولها الحضارة نفسها . والحضارة لدينا ليست مجرد كلمة عائمة إنما هى تتناول خمس نقاط أساسية ، كان المصريون أول من حققها . . لذلك حين نقول تحيا مصر نعنى تحيا هذه القيم التى كان لمصر فضل إقامتها لأن مرض الإقليمية الضيق هذا يجعل كل دولة تشهر سلاحها للمحافظة على مصلحتها الخاصة على حساب الباقين ، بينما العالم اليوم بتأثير العلم الحديث أصبح عالما واحدا ؛ فإن صوتى الآن يمكن أن يسمع فى أى مكان إذا وجد الجهاز العلمى للإرسال وللاستقبال .

العلم جعل الكوكب الصغير أصغر مما هو .

وأصبحنا نحتاج فى تربيتنا للطفل إلى :

أولا : إذا كانت عنده وطنية يجب أن تكون وطنية من النوع السوى أى يعتز بمجتمعه وببلده فى حدود الإيجابيات العطاءة لهذا الوطن وليس لسيئاته .

وبجانب هذا نربى فيه العالمية : أى أن يدرك وهو طفل وبالتدريج أنه مصرى نعم ولكنه إنسان وهنا يأتى فضل المسيحية والإسلام وليس اليهودية لأنها تعتبر اليهود شعب الله المختار وهى وطنية مغلقة . ولكن الإسلام يقول « ليس لقرشى فضل على حبشى إلا بالتقوى . وكذلك المسيحية تعتبر أن كل نفس بشرية داخلها روح وخلاصها أساسى : خلاصها من الإنسان الطبيعى لكى يوجد الإنسان الآخر الذى يرى آفاقا أبعد وأكبر . .

● وإذا كنا فى حديثنا الأول تكلمنا عن أهمية النور الذى يضىءللطفل حياته فإننا نتكلم الآن عن السلاح الذى يواجه به وحش أزمة البشرية اليوم . هذا الوحش له عدة رؤوس ذكرت منها الوطنية السيئة المغلقة وأذكر منها أيضا :

ثانيا : التعصب : أى الإصرار على عدم الفهم المتعقل لموضوع مامعين لأن لى فيه مصلحة بصرف النظر إن كان لى فيه حق أم لا .

والعالم لا يعانى من التعصب فقط بل إنهم يعلمون التعصب فى

أوروبا وامريكا وروسيا ففى بيوتهم وحياتهم العامة والخاصة وفى الكتب والجرائد والإذاعة والتليفزيون يبثون ويركبون فى أعماق الأطفال من شعبهم ، وشعبهم نفسه تعصبات تجعل حل المشاكل العالمية من أصعب ما يكون . بينما لو انتفت هذه التعصبات لأمكن للشعوب أن تتفاهم وتحل مشاكلها . وعلينا نحن أن نقاوم التعصب بيننا إينما وجد .

نحن كمعلمين لا نيأس لأننا مسئولون عن صياغة النفس البشرية ولابد أن نعى العلاج . وأن نتمكن من القول إن الصياغة هنا لم تكن صحيحة أو أن هناك خطأ ما أو أننا المسئولون عن المرض الموجود . فكيف يمكن أن ننشىء الطفل مبرأ من هذه السموم .

ثالثا : هناك من يقول إن محو أمية العالم الغربى كان كارثة على الحضارة الحديثة . طبعا لا أوافق على هذا الرأى مائة فى المائة ولكن فيه شىء من الصحة الأمر ليس محو أمية فقط إنما محو أمية دون التثقيف تثقيفا صحيحا .

وافرض مثلا أن هناك كتابا فيه دعاية ضارة وهناك شخص لا يعرف القراءة . هو محظوظ هنا لأن الكتاب لن يكون له تأثير عليه . أما إذا كان يقرأ وغير مثقف تثقيفا واعيا فسيضار أيما ضرر . ولكن أصحاب الأغراض السيئة يقولون بل لابد من محو الأمية ليتمكنوا من القراءة ولأن التعليم حينئذ سيكون نصف تعليم فسيسهل تضليلهم . هذه وجهة نظرهم .

أذن ليست المسألة مجرد محو الأمية بل لابد من وجود توعية وتربية للإنسان لتحميه من الدعايات السيئة ومن الفهم السطحى للموضوعات الكبيرة فالدول الكبرى بكل امكانياتها فى الإذاعة والتليفزيون والصحافة يمكنها أن تصوغ أفكار الناس كما تريد بحيث أصبحت تمسك بخناق الفرد . فلابد أن نربى الإنسان الجديد ليتعلم كيف يمكنه أن يحمى نفسه ولو جزئيا ولو لبعض الوقت ضد هذا السيل الجارف من الدعايات بمعنى الا يصدق وبسرعة كل ما يسمع بل عليه أن يتحقق كما يقول القرآن « وإن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة » فمعظم ما نقول عنها آراء هى ظنون ووراءها إشاعات ووراءها أغراض .

فإنسان اليوم واقع فى شبكة منسوجة من أشياء كثيرة من ضمنها ما ذكرت .

فكيف يمكن أن نعلم الطفل . .

وأن نعطيه السلاح . .

ليشق الشبكة . .

وينطلق حرا .

واخيرا وليس آخرا أن لا ينسج حول نفسه شبكه من التعصب تحيله إلى شيطان رجيم .

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتاب ١٩٩٠/٥٢١٩

I.S.B.N. 977-01-2979-6 (GOAL)